شجرة اسمها عفاف

مجموعة قصصية

محمد السيد محمد

هلا للنشر والتوزيع

شجرة اسمها عفاف

مجموعة قصصية

محمد السيد محمد

بطاقة فهرسة

محمد ، محمد السيد .
شجرة اسمها عفاف : مجموعة
قصصية / محمد السيد محمد. - ط١
الجيزة: هلا للنشر والتوزيع ، 2008
ص ؛ سم.
تدمك x 326 356 977
١- القصص العربية القصيرة .
أ - العنوان .
813,01

اسم الكتاب : شجرة اسمها عفاف
تأليف : محمد السيد محمد
الناشر : هلا للنشر والتوزيع

6 شارع الدكتور حجازى - الصحفيين - الجيزة
تليفون : 33041421 فاكس: 33449139
الموقع الإلكترونى : www.halapublishing.net
البريد الإلكترونى : hala@halapublishing.net
مدير التسويق : hazim@halapublishing.net

رقم الإيداع : 2008/4231
الترقيم الدولى : 977-356-326-x
طباعة : هلا للنشر والتوزيع
طبع وفصل الألوان: هلا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

مُقَدِّمَة

فى نهاية قريتنا الصغيرة، توجد شجرة يافعة مورقة، شجرة يفر إليها العشاق مع بداية الغروب، ويفرون منها فى نهايته مذعورين، خائفين، يقسم كل منهم بأنه قد رأى تلك الشجرة وهى تتشكل بجذعها وفروعها وأوراقها فى صورة فتاة .. فتاة صغيرة تصرخ وسط الظلام، مرددة أسماء قاتليها!!..

(١)

- ناولنى سيجارة...

فى إرهاق وتثاقل يمد يده إلى منضدة صغيرة بجوار السرير، يناولها العلبة وهو يبلل وجهها الطفولى بنظرة امتنان مبهورة.. تضع السيجارة فى شفتيها، تشعلها بعصبية، تمتص دخانها فى نهم عجيب، تطفئ عود الثقاب بخيط الدخان المار من شفتيها المطوطتين، وبطرف عينها ترى نظراته إليها فتضحك قائلة:

- بتبص لى كده ليه؟

يطوقها بنظراته وهو يقول متنهدًا:

- أصلك النهاردة لذيذة قوى..

تعتدل فى جلستها لتواجهه بصدرها العارى وهى تقول:

- ليه؟!..

- هو أيه اللى ليه؟!..

تتثاقل بالكلمات الخارجة من شفتيها فى عذوبة هامسة:

ـ ليه أنا النهاردة لذيذة؟!..

ـ مش عــارف.. كل اللى عــارفــه أنك وأنتى بتــولعى السـيجـارة، حسيت أنها كـانت حـاتولـع فى شفـايفك من غـيـر كبريت...

اتسعت ضحكتها وهى تنغزه بكوعها فى جنبه قائلة:

ـ أنت مش حاتبطل كلام الأفلام بتاعك ده...!

انطفأ بريق عينيه فى مرارة ولم يُجِبْ...

مرت لحظة صمت اغتالتها بآهة حارة...

- زعلت؟..

- لا..

ـ طيب نقــوم بقى، أحــسن يقــفلوا المدينـة وأنام فـى الشارع...

فى رجاء صادق، همس قائلاً:

ـ ما تخلِّينا شويه...

قرصته فى ذراعه وهى ترفع الغطاء عنها فى خفة قاسية:

ـ أنت أيه.... ما بتشبعش؟!!..

كما ولدتها أمها وقفت فى منتصف الحجرة تلملم أوراق التوت.. قال كأنه طفل يتشبث بلعبته:

ـ حاشوفك إمتى؟..

ـ عايز تشوفنى إمتى؟..

ـ بكره فى نفس المكان؟..

ـ لا خليها بعد بكره.. أصلى بكره مشغوله...

فى انكسار شديد أجاب:

- طيب... زى ماتحبى...

خرجت من حجرة النوم حاملة ثيابها إلى الحمام... أمسك بحقيبة يدها ووضع فيها مبلغًا من المال، جاء إليه صوتها مبللاً بالماء:

ـ ما تنساش ثمن الفستان اللى قلت لك عليه...

أعاد فتح الحقيبة ليضاعف المبلغ فى استسلام، ثم بدأ فى ارتداء ملابسه، وسمعها وهى تدندن بأغنية غير مفهومة، ومرة أخرى هاجمه صوتها فى دلع:

- طلال.. ابقى صلح الدُّش التعبان بتاعك ده...

لم يحاول الرد عليها، وسمعها تتابع غنوتها الغامضة وكأنها لم تنتظر ردًا...

بعد دقائق خرجت إليه بكامل زينتها.. ببنطلونها (الچينز)، وبلوزتها الشفافة، وحزامها العريض، وشعرها المبلل فى إثارة.. نظرت إليه وهو يدخل ساقيه فى بنطلونه:

- أنت بتعمل أيه؟

- بالبس علشان أوصلك...

- لا بلاش.. أنا هاخد تاكسى أحسن...

وكأنه يعرف أنه لا جدوى من معارضتها، وافق مرغمًا، وبرشاقة قبلته فى وجنتيه وهى تمسك بحقيبتها، واستدارت فى سرعة وكأنها لا تريد منه حتى توصيلها إلى باب الشقة:

- سلام يا طلال...

وسمعت صوته يتشبث بها:

- عفاف..

توقفت خطواتها دون أن تستدير:

ـ نعم...

قال فى انبهار وهو يتأمل قوامها الماثل أمامه:

ـ باحبك...

ولم تُدرِّها كلماته، بل واصلت خطواتها نحو باب الشقة وهى تتمتم وكأنها تخاطب شخصًا آخر...

ـ وأيه الجديد؟ ما أنا عارفه...

وخرجت تهبط درجات السلم فى انطلاق..

* * *

وسط الشارع مرة أخرى...

إنها تحب الضجيج... تحب الزحام والدخان المتصاعد من مؤخرات العربات...

حتى فى تناولها للعبة الحب... تحب الضجيج!...

أشارت إلى أول سيارة مرت من أمامها...

ركبت بجوار سائقها بلا تردد، وكأن قَدَرها أن تركب معه، نظرت إليه بسرعة تتفحصه... إنه ليس من ذلك النوع الذى يعجبها أو يثير اهتمامها به...

لم تسمع كلماته اللزجة كنسيج العنكبوت التى يحاول أن يتقرب بها إليها.. يبدو أنه طالب غبى سرق عربة والده ليتصيد بها فتاة...

بلباقة ذكية طلبت منه توصيلها للمدينة الجامعية، تاركة له موعدًا تعلم مقدمًا أنها لن تفى به...

بغباء السمكة ابتلع الطعم...

* * *

دخلت حجرتها فى لامبالاة متجاهلة نظرات المشرفة فى برود قطبى، وجدت (أمينة) و(منى) ممددتين على سريرها، تتشاطران حديثًا هامسًا، أغلب الظن أنه حديث عاطفى...

ـ عفاف أنتى جيتى.. كنتى فين؟.. دى أبله المشرفة حلفت بشرفها إنها هاتبعت جواب لباباكى علشان تأخيرك ده.. و..

ضحكت (عفاف) وهى تلقى بحقيبتها فوق سريرها، قائلة فى لامبالاة:

ـ مادام حلفت بشرفها، يبقى مش هاتبعت...

وضجت الغرفة بالثلاث ضحكًا ومرحًا...

أمــسكت ببــضع أوراق وأخــذت تســتــحلب الـذكــريات استحلابًا...

ـ عفاف... أنتى بتكتبى أيه؟..

فى جدية أجابت:

ـ باكتب قصة... قصة حياتى...

داعبتها (أمينة) فى خبث:

– مع مين فيهم ياترى؟..

نظرت إليها فى تحدٍّ قائلة:

ـ معاهم كلهم..

وهرب لســان أمــينة إلـى أمـعــائهــا، فــسكتت عن الـكلام المباح...

*   *   *

أنا عفاف...

عفاف مصطفى القناوى...

هذا هـو اسـمـى كـامـلاً... أو هـو رقـم القــيــد فـى أرشــيف الحياة..

العمر: خمسة وعشرون عامًا..

من مواليد محافظة (قنا).. طالبة فى كلية الآداب قسم الفلسفة، لى فلسفتى الخاصة فى الحياة، خلاصتها أنه إذا كان الموت فى انتظارنا فى نهاية الطريق، فليكن ذهابنا إليه كل بطريقته...

قل علىَّ - إن شئت - مجنونة، أو عابثة.. قل ما شئت فلا يهمنى إلا أن تقرأ كلماتى قبل أن تُصّدر حكمك... ومادمنا نتحدث عن الصفات، دعنى أصف لك ملامحى الخارجية التى لا يرى كل من حولى سواها...

أنا يا سيدى بمفهوم كل الناس أمثالك.. جميلة...

جميلة جدًا، ليس غرورًا أقول لك هذا... إنه التواضع فى إقرار الواقع. لقد كتب لى أحد الرجال خطابًا ذات يوم قال لى فيه:

- إنك ناعمة كوبرة الخوخ، رقيقة كأوراق الورد، مثيرة كجناح فراشة أفريقية، مبهرة كالقبلة الأولى، وشامخة كأنف تمثال فرعونى.. لقد اختصرت الطبيعة البحار فى عينيك والشمس فى شفتيك والليل فى خصلات شعرك الطويل!!..

وكتب لى رجل آخر يقول:

ـ «إن فى عينيك شقاوة مدرسة من الأطفال وإثارة جامعة من النساء، إنك قطة سيامية أخاف لفرط رقتك أن أنظر إليك فأتحسسك بعينىّ، فجمالك المثقف يقنعنى بوجوده كلما أصغيت إليه بعينىّ»...

هل هذا يكفى أم أنك تريد المزيد من أوصافى التى أذهلت الكثيرين.. أنا فتاة لم تعد تعرف الخوف.. أو بمفهومكم أنتم يا حراس الفضيلة.. لم أعد أملك ما يمكن أن أخاف عليه...

هل أنا ميتة فى نظركم؟..

ربما.. فالميت هو الوحيد الذى لا يعرف الخوف..

لا يهمنى رأيكم فى شىء، فحياتى كدموعى، ملكى أنا وحدى، ولن يشاركنى فيها إنسان، حتى وإن حاول...

ـ عفاف... مش هاتنامى بقى؟!..

كنمرة، اقتربوا من فلذات أكبادها تحفزت:

●● لأ.. مش نايمة..

فى رقه استسلامية ابتسمت منى قائلة كالمعتذرة:

ـ طيب ما تنسيش تطفى النور قبل ما تنامى.. تصبحى على خير..

وغمغمت (عفاف) لنفسها دون أن تعيرها التفاتًا:

ـ «خير».. أى خير يُرجى من هذه الدنيا أيتها الريفية الساذجة؟

إنها تحب (منى).. تحبها إلى درجة الشفقة عليها..، إنها ريفية هادئة، أحلامها متواضعة، متراصة كحبات (كوز الذرة) فى نظام سخيف، خَجُولٌ لا تنظر فى وجه من يخاطبها، تصلى وسط زميلاتها متحملة نظراتهن الساخرة، مؤمنة بأنها ستصل إلى محطة النجاح قبل أن يتحرك القطار...

منك لله يا منى لقد شتت أفكارى بعيدًا عن حديث الذكريات... المهم... فى (قنا) ولدت وعشت...

إن (قنا) مدينة صغيرة، مرافقها كأصابع اليد الواحدة... سينما ومسرح قنا، فندق المنتزه، نادى المعلمين، مقهى الجبلاوى... أماكن بدائية، متواضعة، لا تسمن ولا تشفى من جوع.. فى (قنا) عشت بين أبى وزوجته وأخواتى من أبى، كنت مجرد خادمة لهم... يرحم الله والدتى، لقد ماتت قبل أن

أراها.. مـاتت أثناء ولادتى، ومنذ ذلك اليـوم ووالدى يتـهـمنى بأننى نذير شؤم، وأننى السبب فى موتها... كنت أشعر بالغربة بينهم، وكان والدى يضربنى لأقل سبب لإرضاء زوجته، بل إنه ـ أحيانًا كان يضربنى ثم يبحث عن السبب بعد ذلك، وفى هذا البيت فقدت أغلى ما أملك على يد (مصيلحى) شقيق زوجة أبى الذى كـان يتـقـرب إلىّ من دون الجـمـيع.. كـان يدفع عنى عصا والدى ولسان زوجته اللعينة ولهذا أحببته... لا... ليس حبًا كحبكم هذا الذى لا تعرفون سواه بالمدينة، إذ كيف تحب طفلة فى الثانية عشرة من عمرها رجلاً فى الخامسة والثلاثين من عمره؟..

لقد كنت أجد فيه والدى الذى فقدته بين أحضان زوجته، كنت أحب فيه كلمة الحنان التى حُرمت منها منذ أن وُلدت..

وذات يوم.. ذهبت لتوصيل منديل الغداء له كما أمرتنى زوجة أبى، كانت الشمس تتوسط بطن السماء كسُرَّة آدمية، وحرارة الجو تثرثر فوق الجباه بحبات غزيرة من العرق، وكانت قدماى الصغيرتان توسعان الخطوات طمعًا فى سرعة الوصول دون أن أدرك بأننى ـ فى الوقت نفسه ـ أندفع إلى مصيرى

المشـئـوم... لم أكن أدرك أن بضع خطوات إلى الأمـام يـمكن أن تعود بى عمرًا بأكمله إلى الوراء...

ورفع عم (مصيلحى) رأسـه عن الفأس التى فى يده، وعلت شفتيه ابتسامة لزجة وهو يرانى أوشك على السقوط وأنا أقفز إليه عابرة إحدى القنوات الصغيرة بالحقل.. ومد يده ليلتقط المنديل الذى يحوى الطعام من يدى وهو يردد:

- على مهلك.. على مهلك يا أحلى الصبايا فى بلدنا..

أسعدتنى مجاملته فقلت مبتسمة:

●● ربنا يجبر بخاطرك يارب...

قلتها وأنا أهم بالعودة من حيث أتيت، لكنه استوقفنى بيمناه قائلاً فى لهفة:

- على فين... مش هاتتغدى معايا؟..

ابتسمتُ قائلة وأنا أحاول التخلص من يده الممسكة بذراعى:

●● ياريت.. بس خالتى... و...

ولم يمهلنى لأكمل كلماتى، بل جذبنى برقة إلى كوخ القش

الصغير الذى نصبه فى منتصف الحقل ليلجأ إليه وقت القيلولة قائلاً:

- دى لقمة صغيرة، حتى علشان نفتح نفس بعض...

لم أقاوم...

كنت أشعر بالجوع فعلاً...

لم يخطر بعقلى أن عم مصيلحى يمكن أن يتحول - فى لحظة - إلى شيطان رجيم لا يرحم..

ودخلت (العشة) وبداخلها... تناول عم مصيلحى الغداء.. و.. تناولنى.. كان بشعًا... إننى أكاد أشعر بأنفاسه المحمومة تخترق طبلة أذنى حتى الآن، أشعر بأصابعه داخل استدارة صدرى وتحت جلدى، أشعر برائحة عرقه المشبع بالنتانة وبلُعابه اللزج الذى سال فوق رقبتى حتى الآن...

كان بشعًا.. لم يكن بالحقل مخلوق سوانا، ليسمع صرخاتى المستغيثة، لقد قاومته.. بكل ما أملك من قوة قاومته، لكن رغبته الحقيرة كانت أكبر من كل مقاومتى وأعلى من كل صرخاتى.

وتركنى (مصيلحى).. كومة من لحم وثياب ودموع وخرج إلى الحقل... الكلب... كأنه لم يفعل شيئًا، كأنه لم يقتل إنسانة مازالت بعد قتله لها تتنفس عارًا وذلاً، لم يترك لى قبل خروجه من الكوخ اللعين سوى بضع كلمات، ألقاها بسرعة كأنه قد سبق له إعدادها لمثل هذه المناسبات:

- إوعى عقلك يوزِّك تقولى حاجة.. إنتى عارفة أيه اللى ممكن يحصل لك من أبوكى لو عرف... مفهوم...

يومها عرفت أن مصيلحى كان أشد قسوة من الجميع، ويومها أدركت بعقلى الصغير قيمة النصيحة التى قدمها لى.. لا يمكن أن أخبر أحدًا وإلا قتلونى... إنهم هنا فى الصعيد يقتلون الصيد الذى وقع فى الفخ قبل قتل الصياد الذى أوقعه...

أخفيت ورقة التوت الملطخة بدمائى داخل حفرة من الطين، وردمت عليها.. دفنتها ودفنت معها لسانى.

ومرت الأيام كئيبة، مملة، رتيبة، ليس فيها سوى الإحباط والهزيمة والاستسلام لأناس خلت قلوبهم من الرحمة والحنان وانتقل جفاف جلودهم إلى قلوبهم، الشىء الوحيد الذى كنت

أستميت عليه هو إكمال دراستى.. كان والدى يضربنى فأبكى كمدًا ثم أستذكر دروسى، وكانت زوجة والدى تنهكنى بالعمل طوال اليوم فلا أرتاح ـ فى نهاية المساء ـ إلا وسط كراريسى، كانت الدراسة فى نظرى هى طوق النجاة الذى سوف ينتشلنى بعيدًا عن عالمى الأسود... وقد كان... نجحت فى الثانوية العامة وطلبت من والدى أن أكمل تعليمى بالقاهرة فوافق، ربما لأنه يحبنى ويريد إبعادى عن زوجته القاسية وعن صفعاته المستمرة لى إرضاء لزوجته، وربما تنفيذًا لرغبتها فى الخلاص منى بأى شكل من الأشكال، وربما لإلحاح (عم مصيلحى) عليه لستر ما كان بينى وبينه وتطوعه بأن يتولى عملية التقديم لى بالجامعة وضمان قبولى بالمدينة الجامعية، وربما لكل هذه الأشياء مجتمعة.. المهم أننى قبلت بالجامعة وأصبحت واحدة من بين نزيلات القسم الداخلى بالمدينة الجامعية بالقاهرة.

ـ ياه... أنتى لسه ما نمتيش يا عفاف.. هىَّ الساعة كام دلوقت؟..

أفاقت من حروف قصتها، أعادتها زميلتها (أمينة) إلى الواقع ببضع كلمات متثائبة، نظرت إليها كأنها تشكرها،

ابتسمت وهى تراها محمرة العينين، منكمشة كقطة سيامية أسفل الغطاء...

●● الساعة أربعة صباحًا...

أدارت ظهرها لها وهى تتمتم:

- والنبى أنتى عبيطة... قصة أيه اللى بتكتبيها، هىَّ البلد ناقصة قصتك؟!...

لم ترد عليها... إن (أمينة) تغار منها، تكرهها، إنها تدرك ذلك جيدًا، ولكنها أجبن من أن تُظْهر لها هذه الكراهية.. إنها فتاة إسكندرانية متطلعة، تصعد درجات السلم قبل وصولها إليه، حَقُودٌ حتى النخاع، تتعلق بممدوح وتحاول اختطافه منها بشتى الطرق..

إنها لا تمانع فى أن تترك لها (ممدوح).. إنها لا تحبه، إنها كافرة بالحب، إنها فقط تتسلى به، تتفرج عليه كأى رجل تعرفه...

إن عفاف لا تريد أن تتركه لها، لا لشىء إلا لأنها لم تستأذنها فى الاستيلاء عليه، إنها ترفض أن يؤخذ منها أى شىء عنوة منذ أن ركبت القطار المتجه إلى القاهرة...

إنهـا لا يهـمـهـا (طـلال) الذى يحـبـهـا حـتى الجنون، ولا (ممدوح) الذى يتناولها بواقعية المجرب الذكى، ولا (عمر) الذى يأخذها بسفالة (عم مصيلحى)... إنها تستطيع أن تستغنى عنهم جميعًا، ولكنها ترفض أن تُجبر على ذلك وكفاها ما أُجبرت عليه من قبل...

إنها تحتفظ بهم كما تحتفظ بأحذيتها، فالرجل ـ بالنسبة لها ـ مجرد ورقة صغيرة تصنع منها زورقًا تضعه فى كوب الماء الذى أمامها، إلا (أحمد صلاح)!!...

لقد كان شخصًا مختلفًا وشيئًا مختلفًا، كان هو اللحظات الحلوة التى تحاول اعتقالها من عمرها، كان رائعًا.. إنها لا تذوب بين أحضان أى رجل إلا إذا تخيلت أنه (أحمد)...

كيف تسلل هذا الرجل إلى مسامِّها، كيف امتزجت روحها بروحه؟.. إنها لا تعرف كيف جاء، ولا كيف ذهب...

لم يكن قد مضى على وصولها القاهرة أكثر من شهرين، عرفتها إليه زميلتها (أمل)، قدمته إليها قائلة:

ـ المهندس (أحمد صلاح).. ابن خالتى وزى أخويا بالضبط..

وقدمتها إليه قائلة:

ـ عفاف.. صديقتى اللى كلمتك عنها..

نظرت إليه بكل عينيها فسبقها قلبها إلى رؤيته..

إنه وسيم، أنيق، رشيق.

إنه كل الصفات الجميلة، مجتمعة ومجسدة فى رجل، مال برأسه فى انحناءة خفيفة:

●● أهلاً يا عفاف، فى الحقيقة أمل كلمتنى عنك كتير، لكن ما أظنش أنها كانت مهما اتكلمت هاتقدر توصف الجمال ده كله..

واحمرت وجنتاها.. و.. أحبته!!..

* * *

(٢)

لم يكن (أحـــمــد) مــثل كل الرجــال، بل كــان كل الرجــال مطروحًا منهم سفالتهم وغرورهم، كان مختلفًا، ولهذا أحبته..

كـانت تغـار من يديهـا حـينمـا تسـبـقـانهـا إلى يـديه، ومن خطاباتها التى تسبقها إلى عينيه، ومن صوتها الذى يسبقها إلى أذنيه، تغـار من اسمها لأنه يتذوق طعم شفتيه قبلها حينما ينطق به، تغار من عطرها لأنه يسبقها إلى أحضانه..

إلى هذه الدرجة كانت تحبه، ربما أكثر...

من اللحظة الأولى التى قابلته فيها تعلقت به كما تتعلق الفراشة بالغصن المهتز، تشبثت به كما يتشبث الغريق بالقشة، إنها إلى يومنا هذا لا تعرف من منهما البادئ بطلب اللقاء؟... من منهما الذى أعطى للآخر مفتاح الحب فى كلمة؟..

كل الذى تعرفه أنهما تلاقيا فى هدوء كما تتلاقى الدمعة بالجفن والابتسامة بالشفتين...

قال لها ذات يوم:

- تعرفى يا عفاف، أنا لو ما كنتش قابلتك، كنت حافضل طول عمرى مستنيكى، كنت متأكد إنى هاشوفك واكلمك واسمع صوتك فى يوم من الأيام، يمكن من يوم ما اتولدت وأنا مستنيكى..

لم تندهش يومها من كلماته، لم تشعر أنها مجرد كلمات مرصوصة، كل الذى شعرت به أن هذه الكلمات كلماتها هى ولكنها ضلت الطريق إلى شفتيها فتشبثت بشفتيه..

- عفاف.. احكِ لى.. عايز أعرف كل حاجة عنك...

وحكت له كل شىء عن (قنا).. عن والدتها التى ماتت أثناء ولادتها، عن والدها وزوجته وعن معاملتهما القاسية لها... حكت له كل شىء إلا عن (مصيلحى)، ذلك الكلب المسعور الذى نهش بكارتها قبل أن تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها... كان لسانها يهرب إلى أحشائها كلما همت أن تحكى له، كانت تخاف على حبها من قصتها فتلوذ بالصمت، وكان (أحمد) يشعر أن هناك (شيئًا ما) تخفيه عنه:

- تعرفى يا عفاف، ساعات بيتهيألى إن فيه حاجة بينى

وبينك، حاجة مش عارفها، إنما حاسسها، زى ما يكون فيه ما بينا جدار بيمنعنى أخدك فى حضنى، حتى وأنتى فى حضنى باحس بنفس الإحساس...

يومها شعرت بالدُّوار، وأوشكت نبضات قلبها أن تفضحها، حاولت أن تخفى ارتباكها بابتسامتها ففشلت، كل الذى فعلته أنها مالت برأسها الدقيق على كتفيه وهمست:

●● كل اللى عايزاك تعرفه إنى باحبك وهافضل احبك مهما حصل... و... التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، لخصت شفتاها كل كيانها، تلاشت العينان فأصبحت تبصره بشفتيها، وتسمعه بشفتيها... تحول كيانها بأكمله إلى شفتين منفرجتين.. جفناها شفتان منفرجتان، صدرها شفتان منفرجتان، أصابعها شفتان منفرجتان، تحولت فى لحظة واحدة إلى نقطة حمراء، متوهجة الرعشة، محمومة الانتفاضة...

ومرت الأيام من حولهما كما كانت تمر أعمدة التليفونات من نافذة قطر الصعيد أمام عينيها، لم يحاول أحمد خلالها أن يطور قبلاته لها إلا إلى المزيد من القبلات، كان يحبها ويخاف

عليها، وكانت تحبه إلى الحد الذى كانت تتمنى فيه أن تعطيه أكثر، وتخاف على حبها من عطائها، تخاف أن يرى أصابع (مصيلحى) على جسدها!!

وكما يعطينا القدر حياتنا، يأخذها منا فى لحظة، فالحب كضحكة طفل صغير قد يعكر صفوها شكة دبوس!!..

ذات يوم عادت إلى حجرتها فوجدت والدها فى انتظارها، وعلى غير عادته احتضنها فى حنان، تنفست فى ثنايا جلبابه رائحة (قنا) بشوارعها الضيقة، المتربة، ومنازلها المتهالكة، ومن بين ذراعيه لمحت وجه (مصيلحى) واقفًا بجواره كأنه الماضى مجسدًا:

ـ كيفك يا بنيَّتى... عسى الله تكونى مليحة...

تقلصت شفتاها، شعرت أن (قنا) تسللت إلى وبرة شفتيها فرددت بلا شعور:

●● مليحة يا بوى...

ومد (مصيلحى) يده إليها، تراجعت فى خوف، بيدها اليسرى لملمت فتحتَىْ قميصها، وبصعوبة بالغة لامست يده، وربت والدها على كتفها قائلاً:

ـ مبارك يا عفاف، ولِد عمك رمضان قرأ فاتحتك معاى، وبإذن الله تكتبوا الكتاب بعد ما تخلصى الكلية...

وغامت الدنيا فى عينيها، أخرستها المفاجأة، لم تستطع أن تعترض، فالنساء كالجوارى فى (قنا)، لا يفتحن أفواههن إلا للتنفس!!.. وجلجلت ضحكة مصيلحى فى أركان الغرفة، وكأنه تخلص من حمل كبير أرهق كاهله:

ـ مبارك يا عروستنا... مبارك...

لم ترد، ولم يهتم أحد بردها، فالصمت علامة من علامات الرضاء وخجل العذارى، وانصرف والدها إلى الحديث عن أهل (قنا) وعن زوجته وأولاده وعن أحوال الأرض والزراعة، ثم هب واقفًا ليلحق بالقطار.. لقد جاء إلى القاهرة لإبلاغها بالنبأ السعيد ولزيارة ضريح سيدنا الحسين والعودة إلى (قنا) فى نفس اليوم..

كأنها لا تستحق منه أكثر من ساعة للزيارة...

وأحست برغبة ملحة فى القىء بمجرد انصرافهما فلم تقاوم..

* * *

فى اليوم التالى قابلت (أحمد)، لم تتمالك نفسها بمجرد أن ركبت عربته، سبقتها دموعها إلى أحضانه.. إنها تريد الموت هنا.. بين سواعد هذا الرجل.. هنا كل دنياها، كل عالمها، كل صباها وشبابها، لن يستطيعوا أن ينتزعوها من بين سواعد هذا الرجل، من هنا تستطيع أن تتحدى العالم وأن تصرخ فى وجوه كل الناس، بمن فى ذلك والدها الذى باعها لمن دفع الثمن كما تُباع الخراف بالأسواق...

- اهدى يا عفاف.. اهدى يا حبيبتى...

صرخت وسط دموعها كأنها لم تسمعه:

●● عايزين يجوزونى يا أحمد.. أبويا قرا فاتحتى على ابن عمى رمضان..

اهتزت نظرات عينيه، أمسك بكلتا كتفيها، ردد بلا وعى:

- ما يهمكيش، كل عقدة ولها حلاَّل، أرجوكى اهدى عشان خاطرى...

ووسط دموعها روت له كل شىء.. و.. نظر إليها بكلتا عينيه والتقط شفتيها بشفتيه، فذابت فى قبلته.. نسيت الدنيا بأكملها.. كل آلامها.. كل أحزانها.. كل دموعها.. إن التقاط

شفتيه أهم عندها من التقاط أنفاسها، وبرفق رقيق أبعد شفتيه عنها، وبأصابعه أمسك ذقنها مبتسمًا:

- عايزك تضحكى.. لما هاتضحكى كل الدنيا هاتضحك قدامك.. أنتى ما تعرفيش إن ضحكتك هىَّ اللى خلتنى أحبك.. لو موش عايزانى أحبك ما تضحكيش..

كطفلة صغيرة مسحت خديها بكلتا يديها وحاولت أن تبتسم، تقلصت شفتاها عن شعاع ابتسامة..

- لأ.. أنا عايز ضحكة كبيرة.. أكبر من حبك لى.. علشان خاطرى.. اضحكى أُمال..

وضحكت، ومسح وجهها بقبلاته، ثم.. عضها من أذنها اليسرى فصرخت فى دلع:

•• أحمد.. يامجنون..

وضحك من كل قلبه وهو يحرك لسانه فى فمه وكأنه يتذوق شيئًا لذيذًا:

- الله.. ده أتاريكى لما بتسمعى الكلام بتبقى ودانك طعمها زى السكر..

اتسعت ضحكتها وهى تضربه بيدها فوق صدره:

●● ياسلام..

شاركها الضحك، ثم وكأنه قرر شيئًا ما:

ـ عفاف.. أنتى بتحبينى؟..

●● مش قوى..

ـ جاوبينى أرجوكى.. بتحبينى ولا.. لأ؟

●● أنا مش باحبك.. أن باموت فيك..

ـ وبتثقى فىَّ؟..

أجابت كطفلة وكأنها تترقب لعبة جديدة سيلعبها معها:

●● جدًا..

ـ طيب خلاص..

فى اندهاش صرخت:

●● هوَّ إيه اللى خلاص؟!

ـ خلاص كل حاجة هتبقى عال...

●● عال إزاى فهمنى يا أحمد؟..

ـ يا ستى اطمئنى.. هاقابل بابا وهاقنعه إنك مش عايزة تتجوزى (رمضان) وعايزة تتجوزى واحد تانى أول حرف من اسمه (أحمد)..

صرخت وكأن حية قد لدغتها:

●● ده يقتلنى ويقتلك..

ضحك وهو ينظر إليها مندهشًا:

ـ وهو فيه حل تانى؟!..

نظرت إليه وكأن ظهرها للحائط:

●● لأ..

أدار عربته وهو يضحك قائلاً:

ـ يبقى مفيش غير إننا نتقتل وأمرنا لله..

وتركها فى ذلك اليوم وقد جفف دموعها، وزرع فوق شفتيها ابتسامة وفى خيالها ومضة أمل.. مجرد أمل.. وعندما انفردت بنفسها داخل حجرتها اكتشفت أنها نسيت ابتسامتها معه، فأجهشت فى البكاء من جديد!!

* * *

(٣)

ترتدى ثوبًا أسود وطرحة سوداء، وبجوارها يجلس (عم مصيلحى) فى جلباب أسود، يجلسان فى منتصف دائرة بشرية تصفق، أمامهما توجد شجرة عتيقة يعلقون فى أحد فروعها حبيبها (أحمد) من قدميه، يتأرجح جسده فى الهواء.. الجميع يضحكون وهم يهنئونها على زواجها من (مصيلحى).. زوجة والدها تدخل فى ثوب راقصة غجرية، تمسك كرباجًا، ترقص فى جنون، تضرب بالكرباج حبيبها (أحمد)، تصرخ.. تحاول منعها.. يمسك بها مصيلحى من ذيل فستانها فيتمزق.. تبدو عارية كما ولدتها أمها، يضحك كل الناس بمن فيهم (أحمد)، تخطف الكرباج من زوجة والدها لتضرب به كل من حولها فتزداد ضحكاتهم، تنظر إلى (أحمد) فتجده أكثرهم ضحكًا، تصرخ فيه.. اسكت.. اسكت.. تضربه وتصرخ.. تصرخ.. تصرخ..

ـ عفاف.. مالك يا حبيبتى..؟ خير.. اللهم اجعله خير..!

تنظر حولها فى ذهول وهى تبكى، لقد كانت تحلم..

●● كابوس فظيع.. فظيع..

تحتضنها (منى) فى إشفاق، ويأتى إليهما صوت (أمينة) ضاحكًا:

- الظاهر شافت أبله المشرفة فى المنام...

لم تعيراها اهتمامًا، وواصلت عفاف انكماشها داخل صدر منى وهى تتمتم:

●● كابوس فظيع يا منى..

كأم صغيرة رددت منى فى حنان صادق:

- خير.. اللهم اجعله خير..!

وخافت أن تواصل النوم فى تلك الليلة، أقنعت زميلتها (منى) أنها سوف تواصل نومها، وأغمضت عينيها وأخذت تفكر...

إن هذا الكابوس قد أيقظها على حقيقة مخيفة...

إن (أحمد) صادق فى حبه لها، وصادق فى عزمه على مقابلة والدها ومصارحته بحبه لها، برغم خطورة هذا، أما هى فلم تكن صادقة معه فى أن يعرف كل شىء عنها..

إنها لم تصارحه بموضوع (مصيلحى) الذى اغتصبها فى طفولتها، لقد جاء الوقت الذى أصبح فيه هذا الموضوع ضرورة ملحة.. لا بد أن تعترف له..

إنه يحبها ولكن.. هل سيفهمها؟.. هل سيلتمس لها العذر؟ هل سيفهم أنها كانت ضحية لحيوان يرتدى جلبابًا بشريًا؟.. إنها تخاف على حبها وحبيبها، ولكن لا بد من مصارحته.. ستعترف له، وليحدث ما يحدث بعد ذلك.. إنها لا تستطيع مواصلة خداعه.. و.. لم تنم حتى الصباح...

* * *

واعترفت له...

فى قسوة وبلا مقدمات ألقت بحملها عليه مرة واحدة، كأنها خافت أن تتراجع فى آخر لحظة فقررت أن تسبق اللحظة بالاعتراف.. ولم يتكلم...

شعرت أنه كبر عشرات الأعوام فجأة، وكأنها وضعت باعترافها له أهرام الجيزة فوق صدره.. إنه لا يستطيع أن يتنفس.!. يكاد يختنق.. نظرت إليه فى لهفة كأنها تشد لسانه من داخل فمه بعينيها ليتكلم.. ولم يتكلم.. وبكت.

فى صمت الموت بكت.. ومرت دقائق قاتلة حتى أتاها صوته مليئًا بالحزن:

- عفاف.. أنا عارف ومقدر إنك كنتى ضحية لسفالة إنسان وضيع، عديم الضمير، لكن.. أنا بشر ومش نبى، ومحتاج شوية وقت علشان أقدر أفهم، وأعذر، وأغفر.. و.. ما تطلبيش منى أى كلام دلوقت.. أرجوكى حاولى تفهمينى..

همست فى هلع وكأنها تشفق عليه من نفسها:

●● أنا فاهماك يا أحمد.. فاهماك...

واحتضنته كأنه ابنها.. وضعت رأسه المعذب فوق صدرها وسمعته وهو يبكى.. إنها المرة الأولى فى حياتها التى ترى فيها رجلاً يبكى، لم تتخيل أنها يمكن أن تسبب له كل هذه المعاناة والعذاب.. إنها تعذره لو هجرها.. تعذره لو قتلها.. وامتزجت دموعه بدموعها فى قبلة مالحة مات فيها الدفء من قبل أن يولد..

وبإشفاق صادق همست قبل مغادرتها لسيارته:

●● تصبح على خير...

وتمتم فى مرارة وكأنه يحادث نفسه:

ـ خير.. وانتى من أهل الخير يا...

ولم يكمل..

ماتت الحروف فوق شفتيه رغمًا عنه..

أنه لا يريد أن يناديها باسمها.. (عفاف).. وفهمت وعذرته، وخرجت من العربة وهى تتمنى أن يتبعها ويدهسها بها..

واختفى أحمد ولم تشاهده بعد ذلك..

كأن أحزانه قد ابتلعته..

وجاءت إليها ابنة خالته (أمل) بوجه متجهم، تحمل إليها خطابًا منه.. خطابًا تلغرافيًا قصيرًا تقول كلماته:

●● «حبيبتى...

لقد كان علىَّ أن أختار بين حبى لك وبينك، وقد اخترت حبى لك.. دعينا نحتفظ به بين ضلوعنا نظيفًا، طاهرًا، رقيقًا.. ساعدينى على أن أواصل حبى لك من بعيد.. أرجوك.. حاولى أن تفهمينى.. وداعًا!!»..

ودارت الأرض بها فتهاوت مغشيًا عليها، وحينما أفاقت وجدت نفسها راقدة فى سريرها وبجوارها (أمينة ومنى وأمل) وفى عين كل منهن نظرة رثاء حقيقية.. ونظرت عفاف إلى (أمل) متوسلة:

- أمل.. أنا عايزة أشوف أحمد.. أرجوكى..

●● أحمد سافر يا عفاف..

وواصلت كأنها لم تسمعها:

- أنا متأكدة إنى هاقدر أقنعه.. و.. بتقولى سافر.. سافر فين؟

وأجهشت ببكاءٍ كالنَّزْف، وصرخت فيها (أمينة) كأنها لم تعد تحتمل:

●● عفاف ما تعمليش فى نفسك كده.. مصيره يرجع، وحتى لو ما رجعش انسيه..

وصرخت فيها:

- ما تقوليش انسيه.. أنساه إزاى.. ده هوَّ اللى ربنا بعتهولى فى الدنيا.. أنا ماليش غيره..

واحتضنتها (منى) وهى تبكى:

●● طيب يا حبيبتى.. أرجوكى كفاية.. أنا متأكدة إنه ما يستغناش عنك..

وأطبقت (عفاف) جفنيها وكأنها لا تريد أن ترى بعينيها شخصًا آخر غيره.. سوف يعود.. إنه يحبها.. سوف يعود..

ولم يعد (أحمد)..

وعرفت فيما بعد من (أمل) أنه قرر الاستقرار فى كندا..

كمهاجر....

* * *

كغريق يتعلق بقشة تعلقت بممدوح، ولم تكن تتوقع أن هذه القشة ـ هى نفسها ـ التى قصمت ظهر البعير!!..

إنها لم تتعمد أن تُدّخله فى محيط حياتها.. لقد فرض نفسه عليها فرضًا، إنه (صيدلى) يعمل فى صيدلية بنفس الشارع الذى توجد به مدينتها الجامعية، كان يتفحصها بعينيه كلما دخلت لشراء أقراص (النوڤالچين) التى أدمنت تعاطيها، كأنها تعالج صداع قلبها به!!

فاجأها ذات يوم ولم يكن بالصيدلية أحد غيرهما:

- أنتى ليه ما عندكيش عزيمة؟!..

نظرت إليه فى اندهاش وكأنها لا تصدق أنه يخاطبها.. تراجع بابتسامته المشجعة قائلاً:

- أصلى دايمًا باشوفك حزينة، وأنا مؤمن بأنه مفيش حاجة ممكن تخلِّى الإنسان حزين إلا إذا كان ماعندوش عزيمة يتغلب بيها على حزنه..

صُعقت من كلماته.. إنه يعريها من أسرارها، يقتحم عالمها الحزين بلا مبرر أو سبب.. ضحك كأنه يشجعها ويعتذر لها عن تطفله الغريب:

- أصل شغلتنا دى بتؤمن بوجود دوا لكل مرض.. وقصدى تنفَّعينا..

ابتسمت رغمًا عنها فى مرارة.. إنه خفيف الظل رغم طريقته المقتحمة فى التقرب إليها.. قالت وكأنها تسرِّى عن نفسها:

●● وأنت بقى عندك علاج للحزن؟!..

أجاب فى جدية لا تتفق مع مظهره وكأنه بائع ماهر يعرض بضاعته عليها:

ـ مفيش دوا جاهز للحالة بتاعتك دى، لكن ممكن أعمل لك دوا تركيب سريع المفعول، وهو عبارة عن شوية فيتامينات اجتماعية ومعاهم نقطتين منشط عاطفى.. تاخدى منهم ملعقة كل يوم على غيار الريق...

اتسعت ابتسامتها وهى تقول له:

●● وعبارة عن أيه بقى المنشط العاطفى ده؟..

صرخ فى فرح وكأنه وصل إلى ما يريد من أقرب الطرق:

ـ أنا.. أنا أقوى منشط عاطفى فى العالم...

اعتذرت فى رقة وهى تضحك:

●● أنا آسفة جدًا يا دكتور، أصل صحتى ما بتجيش على الأدوية..

تمسك بها قائلاً:

ـ يا ستى جربى. أنتى حاتخسرى أيه؟..

انكمشت ابتسامتها فجأة، ورددت وكأنها تخاطب نفسها:

●● فعلاً.. أنا حاخسر أيه؟..

هتف وكأنه أمسك بخيوط اللعبة بين أصابعه:

- يبقى حاتقابلينى إمتى علشان نبتدى العلاج؟

رددت وكأنها تلقى بنفسها فى قاع الهلاك:

●● بكره.. بكره الساعة خمسة قدام محطة الأتوبيس اللى فى آخر الشارع...

وقابلته...

وعالجها من المرض.. بأن قتلها!!..

* * *

فى أول لقاء لهما أخذها إلى بار (التافرنا) بالهيلتون... عالم غريب عليها، كأنها انتقلت إلى كوكب آخر.. كوكب لا يعيش به والدها ولا زوجته ولا مصيلحى ولا.. أحمد صلاح.. الأضواء خافتة، كأنها لا تضىء بقدر ما تهمس بالضوء، المقاعد والأرائك القطيفة الحمراء ترطب أعصابها وتهدهدها، عازف (الأكورديون) يتنقل بين الموائد متغنيًا بلغات متعددة لا تفهم منها شيئًا، رواد البار غالبيتهم من الأجانب، يجلسون على

طبيعتهم فى كسل وفى يد كل منهم كأس، هنا يتقلص الحزن إلى ضحكة بلهاء لا مبالية، هنا تنام الهموم فى أناقة شديدة بعيدًا عن شارع الحياة... مال عليه الجرسون فى أدب مبالَغ فيه، قال له دون أن يسألها:

- اتنين جين تونيك...

دارت بعينيها فى سقف المكان وجدرانه، زجاج النوافذ والأركان مرسوم عليه كائنات أسطورية، فلكلورية جميلة، مطرزة بالورود الدقيقة على أطراف لوحات الزجاج المعشق... و...

- اشربى...

أمسكت بالكأس فى خوف، ناظرة إليه كطفلة مبهورة:

●● أيه ده؟!

أجابها وعلى شفتيه ابتسامة لزجة:

- دى الأولة آه.. اشربى...

وشربت، وأحسست مع الرشفة الأولى أنها دخلت عالمًا جديدًا تغلفه الدهشة... بعد فترة وجيزة.. مد لها يده وعلى شفتيه نفس الابتسامة المشجعة:

ـ ودى الثانية آه...

وشربت... ونسيت عالمها بأكمله.. نسيت (قنا) بشوارعها الضيقة وعقولها الضيقة، نسيت أهلها وحبيبها، ونسيت نفسها... و... ذهبت معه إلى شقته.. وهناك.. نسيت جسدها بين ذراعيه!!..

* * *

كان (ممدوح) واضحًا معها كشمس الظهيرة، جريئًا لدرجة أنه لا يطرق أبواب الآراء وإنما يركلها بقدميه ويدخل دون استئذان، يؤمن بأن المستقيم هو أقصر الطرق بين النقطتين... وقد كان طريقه إليها قصيرًا جدًا...

ذات يوم كانت تقف أمام المرآة بشقته ترتدى ثيابها فوجدته يفتح حقيبة يدها ليضع بها مبلغًا من المال.. صرخت فيه:

●● أيه ده يا ممدوح؟!..

ضحك فى خجل قائلاً:

ـ أصلى كنت عايز أشترى لك هدية، معرفتش لأن ذوقى مش قد كده، فقلت لنفسى ياواد وهو فيه تكليف بينك وبين عفاف، ما تسيبها تشترى لنفسها الهدية اللى تعجبها...

وقاطعته قائلة:

●● أيوه إنما... بس. و..

وضع أصابعه فوق شفتيها ليُسكتها راجيًا:

- علشات خاطرى ما تعترضيش...

وقبلت...

ومنذ ذلك اليوم تعودت منه أن يفتح حقيبتها من آن لآخر ليضع بها مبلغًا من المال.. لم تطلب منه ذلك، ولكنه كان يعطيها بالقدر الذى يحافظ به عليها لنفسه!!..

* * *

ذات يوم رأت (أمينة) بجوار (ممدوح) فى سيارته.. لم تغضب.. إنها لا تحبه كى تعطى لنفسها الحق فى محاسبته.. إنها فقط تلهو معه، فهو مجرد دواء، والمريض لا يحب الدواء.. إنه فقط يتناوله!!..

كل الذى أثارها أن (أمينة) أخفت عنها علاقتها به، بالرغم من علمها أنه صديقها..

هل (أمينة) تحب (ممدوح)؟ محتمل.. هل تتركه لها؟ ليس

هناك سببٌ يدعوها لذلك.. لقد عرفت - الآن فقط - سر تلك العصبية التى تعاملها بها.. إنها تغار منها... مسكينة...

فى اليوم التالى قالت لممدوح:

●● على فكرة... أنا شفتك امبارح...

ابتسم فى فتور وقد فهم ما تعنى وتمتم قائلاً:

ـ آه.. ظريفة (أمينة) صاحبتك دى.. دى لسه فى الأولة آه زى ما هى...

سكتت.. إنه وقح، ويمارس وقاحته فى النور دون مبالاة.. ليكن.. إنه لا يهمها فى شىء، اقترب منها وطوّقها قائلاً:

ـ بس أنتى يا عفاف.. حاجة تانية خالص... وانتهى حوارهما بقبلة طويلة ومبلغ لا بأس به استقر داخل حقيبة يدها...

فى اليوم التالى تعرفت إلى (طلال).. شاب أردنى طيب القلب، وقف بجوارها بعربته الفارهة ومد وجهه الوسيم من النافذة هامسًا:

ـ أنا اتأخرت عليكى.. مش كده؟..

نظرت إليه فى اندهاش وعلى شفتيها بداية ابتسامة:

- أنتى مش جيتى لى امبارح فى الحلم وطلبتى منى أقابلك فى المكان ده النهاردة؟..

لم تتمالك نفسها من الضحك، فوجدته يهبط سريعًا من العربة ليفتح لها الباب المجاور له، كأنها ملكة يُطلب منها الجلوس على العرش.. وجلست على عرشها بجواره، وسألها وهو يكاد يطير من الفرحة:

- تحبى نروح فين؟..

قالت فى لامبالاة، كأنها تخاطب نفسها:

●● أنت عندك شقة؟..

بسرعة البرق أجابها غير مصدق:

- أيوه...

قالت كأنها تكمل حوارها مع نفسها:

●● خلاص ياللا بينا...

* * *

دائرة تحتضن مربعًا، والآهة تُصلب فوق جدار الصمت بجوف الحجرة.. اللون.. وما الألوان بغير حياة.. تنساب الدائرة الملساء على صدر مربع، تغتاله طعناً وتباعداً، والرعشة تبدو كأبجدية وليدة الدهشة...

- باحبك يا عفاف...

ضحكت حتى الثمالة، وضعت قطعة من الثلج فى كأسها وهى تقول:

●● قول كلام غير ده...

تنمرت نظراته وهو يستعطفها فى صدق:

- أنا مستعد أتجوزك فورًا لو حبيتى...

صبت كأسًا، وضعتها بجوارها وهى تتمتم فى هدوء ثلجى:

●● أنت صحيح بتحبنى؟..

- أيوه...

●● طيب هات لى الفستان اللى قلت لك عليه...

فى غيظ أجاب:

- عفاف.. أنا عايز أتجوزك...

جلجلت ضحكتها فى دلع وهى تقول:

●● وأنا عايزة الفستان..

«وكان حبيبها معلقًا من قدميه فى شجرة، وهى تجلس بفستانها الأسود وطرحتها السوداء وبجوارها (عم مصيلحى) وسط دائرة بشرية تصفق لزوجة والدها التى ترقص، تحاول منعها من ضرب حبيبها بالكرباج فيمسك بها مصيلحى من ذيل فستانها فيتمزق، وتصبح كما ولدتها أمها، فيضحك كل الناس بمن فيهم حبيبها.. أحمد..».

ضحكت فجأة حتى استلقت على ظهررها، وتناثر ما بالكأس من ثلج وخمر فوق قميص نومها.. صرخ فيها (طلال) فى فزع:

- مالك يا عفاف؟..

صرخت ضاحكة وهى تلوح بالكأس إلى أعلى ناظرة إلى سقف الغرفة:

●● كابوس فظيع يا طلال.. كابوس فظيع..

* * *

فى إشفاق حقيقى نظر إليها.. كانت تخفى وجهها بإحدى المجلات وهى تبكى فى صمت.. مسكينة (أمينة).. إنها تحب (ممدوح) فعلاً... إنها تتعذب لعذابها..

آه لو تصارحها بسر بكائها.. ربما تمكنت من مساعدتها.. إنها لا تستطيع أن تقاوم حنانها تجاه تلك المسكينة:

●● أمينه.. أنتى بتحبى ممدوح؟!..

مسحت دموعها وهى ترفع المجلة عن وجهها لتواجهها بعينين محمرتين:

- ممدوح مين؟..

قفزت عفاف من سريرها وأمسكت بها من كتفيها ونظرت إليها بكل عينيها قائلة:

●● مفيش داعى نضحك على بعض.. بتحبيه ولا.. لأ؟

هربت (أمينة) بعينيها إلى أسفل، وهمست فى ضعف:

- وافرضى إنى باحبه؟...

صرخت بلا وعى:

●● تبقى مجنونة...

واجهتها الأخرى صراخًا بصراخ:

ـ مجنونة عشان باحبه، مش أحسن ما امشى كل يوم مع واحد شكل...

تجاهلت ما تقصده، وواصلت كلامها وكأنها لم تفهم ما ترمى إليه:

●● لأ.. علشان ممدوح ده إنسان سافل وما يستاهلش واحدة زيك..

بلا تردد واجهتها فى برود:

ـ أُمَّال يستاهل واحدة زيك؟..

ابتعلت إهانتها لها فى ألم قائلة:

●● الله يسامحك.. على العموم.. ممدوح مايهمنيش.. اللى كان يهمنى فى الدنيا أنتى عارفاه، وأهو راح.. ومن النهاردة أنا مش ها أقابله.. أوعدك.. أنا ممكن أعوض مليون واحد زى (ممدوح)، إنما مش ممكن أعوضك يا أمينة..

نظرت إليها أمينة وعانقتها وهى تجهش بالبكاء، ورددت فى ألم:

ـ سامحينى يا عفاف.. يارب ما يكونش الجواب وصل.. يارب.؟

●● جواب.. جواب أيه؟..

هربت من سؤالها وهى تهز رأسها وكأنها أفاقت لنفسها:

ـ مفيش.. مفيش..

ربتت على كتفها فى حنان وأنامتها فى سريرها وهى تهدهدها كطفلة صغيرة:

●● طيب يا حبيبتى.. خلاص.. خلاص استريحى..

وأغمضت (أمينة) عينيها وهى تشعر بسفالتها، وندمت.. ندمت على الخطاب الذى أرسلته منذ يومين إلى والد عفاف بالصعيد، تخبره فيه بكل أفعال ابنته وغزواتها مع الرجال، وتؤكد له أن ابنته البكر قد صارت.. امرأة..

* * *

أخرستها المفاجأة حينما رأتهم أمامها.. أباها و(عم مصيلحى)، وابن عمها (رمضان)... فى وجوم نظروا إليها... لم يمد إليها أى واحد منهم يده لمصافحتها...

ماذا حدث؟...

هل ماتت زوجة والدها؟...

إنهم لا يتكلمون، إنهم فقط يتفحصونها بعيونهم.. ما هذا الحزن المقيم فى عينَىّ والدها؟.. ما هذا الاصفرار الذى يكسو وجه ابن عمها (رمضان)؟.. ما هذه الأسلحة التى يحملونها أسفل ملابسهم؟.. هل دخلت إسرائيل المدينة الجامعية؟!..

بصعوبة بالغة نطق والدها:

- لمى خلجاتك يا عفاف وتعالى معانا...

انتابها الذعر فجأة.. خافت.. عفاف التى لم تعد تعرف الخوف خافت.. تناثرت الكلمات فوق شفتيها:

●● حصل أيه يا بوى؟..

بهدوء ما قبل العاصفة أجاب:

- ما حصلش حاجة عاد.. أهلك عايزين يشوفوكى..

دارت الدنيا فى عينيها.. ما الذى حدث؟..

واستدارت فرأت (أمينة) تبكى فى هلع وهى تتمتم:

- سامحينى يا عفاف.. استر يارب...

وأحست (عفاف) بالمصيبة رغم جهلها بالتفاصيل، شعرت بأنها ذاهبة إلى قضائها، وكالمنومة تنويمًا مغناطيسيًا لملمت ثيابها ومضت معهم كعصفور صغير تحيطه الغربان بالسلاح..

* * *

أعمدة التليفون تتراجع للخلف من نافذة القطار، وجه والدها جاف كأنه قد مات منذ سنين، ابن عمها (رمضان) يعض على نواجذه فى صمت، بينما ارتكز (مصيلحى) على عصاه فى ذهول، تمد نظرها إلى الظلام الحالك خارج النافذة، يطالعها وجه (أحمد) قائلاً:

- عفاف.. اضحكى.. لما هاتضحكى الدنيا كلها هاتضحك قدامك...

تهرب من وجهه إلى وجه والدها فيصيبها الفزع، تعود إلى ظلام النافذة برد الفعل، تمر أمام عينيها حروف رسالته:

«حبيبتى.. لقد كان علىَّ أن أختار بين حبى لك، وبينك أنت، وقد اخترت حبى لك!!..».

ولم تستطع أن تكمل الرسالة فى ظلام خوفها من الغربان، يفاجئها وجه ممدوح، وعلى شفتيه ابتسامته اللزجة:

ـ دى الأولة آه.. اشربى...

ويطل وجه (أمينة) وهى تبكى فى حنان:

ـ سامحينى يا عفاف.. سامحينى.. يارب ما يكونش الجواب وصل...

أى جواب؟...

هل يمكن أن... مستحيل.. يا إلهى.. هل فعلتها أمينة؟

كيف.. كيف؟...

ومالت إلى النافذة مغشيًا عليها...

وبعد بضع ساعات، وصل القطار إلى (قنا) يحمل فى أحشائه عصفورًا بارد الملامح، مرتعش التقاطيع، كأن الدماء قد سُحبت من عروقه... وفى نهاية المطاف استقبلتها زوجة والدها فى غل وحقد، جذبتها إلى إحدى الحجرات، طلبت منها أن تخلع ثيابها فى شماتة... و... فحصتها... وصرخت تولول، أمسكت بتراب الأرض ووضعته فوق رأسها... سمعت طرقات فوق الباب الخارجى تطالبها بالصمت... و...

ـ اخرسى يا مَرَة...

وخرست زوجة والدها وعفاف تبدو بيضاء فى لون سحابة بحرية، وفى عينيها ماتت كل الصور، وفوق شفتيها رعشة مخيفة.. وفى الليل.. أخذوها إلى هناك...

أخذوا (عفاف)...

فى نهاية البلدة حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع ولا قلب يحن ، وبسرعة كمموها بقطعة من القماش، وبقسوة دفنوها حية...

دفنوا (عفاف)...

ومن جسدها نبتت شجرة... شجرة يافعة، مورقة، يفر إليها العشاق مع بداية الغروب، ويفرون منها فى نهايته مذعورين، خائفين، يقسم كل منهم بأنه قد رأى تلك الشجرة وهى تتخلق وتتشكل بجذعها وفروعها وأوراقها فى صورة فتاة.. فتاة صغيرة تصرخ وسط الظلام، مرددة أسماء قاتليها !!..

* * *

المواجهة

كان المكان مزدحمًا بالعيون، ولكنه ـ لدهشته ـ رأى عينيه تنظران إليه، نفس الشخص الممصوص الملامح، الضئيل الأطراف الذى يطارده أينما ذهب، يطارده دون أن يحتك به، أو يعترضه بحوار أو حتى ببنت شفة.. فى الشارع، فى مصعد الجريدة التى يعمل بها، أمام مدخل العمارة التى يقطنها.. إذا ذهب إلى المسرح رآه جالسًا وسط الصفوف، مبتسمًا فى لزوجة، محدقًا فى اقتحام، وإذا توقف أمام إحدى إشارات المرور رآه جالسًا فى السيارة المجاورة.. نفس الابتسامة ونفس العينين الثاقبتين اللتين تزلزلان فرائصه وتشعرانه بخوف سحيق.. خوف لا يعرف مداه أو منتهاه.. يتبعه كظله، ويتابعه كضميره فيعكر عليه صفو نفسه، واستقامة خطواته، أما الشىء المدهش حقًا فهو اعتياده رؤية هذا الشخص وتوقع ظهوره إلى درجة البحث عنه إذا اختفى، تمامًا كما تبحث أصابع الجريح عن موطن الجرح المستتر خلف الثياب، يتحسسه رغم أنه يحسه.. نوع غريب من المعاشرة الإجبارية التى يفشل فى الفكاك منها فيستسلم لها، ويحاول الفرار منها

بالفـرار إليهـا، ولم يخـذلـه ذلك الظل الآدمى بـالاخـتـفـاء عنه لحظة، بل إن عينيه الثاقبتين كانتا تسبقانه إلى وسادة سريره.. بقعتـان من لغز السـواد أو سـواد اللغـز، تؤرقـانه بالاختفاء كمـا تؤرقـانه بالظهور، وتنهشـان لحم الحقيقة بأنياب الخيـال داخل تكرارية اللحظة، وزحام الرغبة فى الإمساك بتلابيب المادة...

وها هو الآن.. والآن فقط.. قد أوشك على الجنون مقـررًا أن يمسك به، وليكن ما يكون، وصرخ فى وجهه نابحًا:

- من أنت.. وماذا تريد منى بحق الشيطان؟..

وزادت الابتسامة فوق الوجه الممصوص، وهو يجذب ذراعه من بين أصابعه المرتعشة هامسًا:

●● سؤال يحتاج اتزان العقل لا جنون القوة...

وعاد يصرخ فى وجهه مرتعشًا:

- من أنت؟....

●● أنا بعضك الملقى خارج جسدك...

- تراوغنى يابن الأفعى، سوف أقتلك إن لم تُجبْنى.

وعاد يهمس مبتسمًا وكأنه لا يأبه بتهديده:

●● تريد معرفة الحقيقة أم تريد الهروب منها بقتلها؟!

ـ من أنت.. أجبنى؟..

●● أنا بطل قصتك التى تكتبها حاليًا...

ـ محاولة سخيفة للعبث معى، أم للعبث بى؟!..

●● إنها الحقيقة وأقسم لك..

ـ سوف أتصل برجال الشرطة للقبض عليك..

●● نهاية غبية لمأساة قصصية...

ـ تريد أن تقنعنى أن حروفى قد تجسدت فى شخصك اللعين؟

●● هذا بالفعل ما حدث...

ـ من الجنون أن أصدقك، فقصتى التى أكتبها حاليًا لم تُنشر بعد حتى تعرفها... و...

●● أنا صلاح...

ـ صلاح؟!..

●● أجل يا أستاذى الفاضل.. أنا صلاح بطل قصتك الجديدة، الشاب الجامعى الذى جعلته يقتل حبيبته (صفاء) وسط هلاوس المخدرات ليظفر بعقدها الذهبى لشراء تذكرة هيروبين... و...

ـ اصمت أيها الشيطان الرجيم...

•• أليس هذا ما كتبته فوق أوراقك؟.. أليس هذا ما دفعتنى إليه حروفك البلهاء؟..

ـ اصمت.. أرجوك.. إنك ـ بلا شك ـ كابوس مزعج يحاول أن يدفعنى إلى الجنون..

•• بل أنا حقيقة الخيال فى حاضرك المستيقظ، وتستطيع أن تلمسنى بأصابعك التى صنعتنى..

ـ تعنى أنك قتلت (إنسانة ما) تُدعى (صفاء)... و...

•• لقد نفذت كل ما كتبته فى روايتك التى لم تستكملها حتى الآن...

ـ والشرطة.. أين رجال الشرطة، ولماذا لم يقبضوا عليك حتى وقتنا هذا؟..

•• إنك لم تكتب هذا فوق أوراقك...

وغمغم بينه وبين نفسه:

ـ هذا صحيح... إن رجال الشرطة لم يقبضوا على بطل قصتى حتى الآن..

●● ولهذا تجدنى حرًا طليقًا أمامك...

- وماذا تريد منى بحق الجحيم؟..

●● أريد معرفة نهايتى..

- نهايتك الحتمية هى حبل المشنقة مهما حاولت الهرب..

●● ولماذا لا تكتبها إذًا ليرتاح الضميران.. ضميرك وضميرى؟

- ولكنها نهاية تقليدية متوقعة..

●● إذًا فكّر فى نهاية أخرى، وبسرعة أرجوك.. أريد أن أنتهى...

- فكر معى... إنها حياتك...

●● أنا لا أستطيع أن أفكر لنفسى.. أنا مِن صُنْعك، وعليك وحدك أن تفكر لى.. وبسرعة..

- ولماذا السرعة؟..

●● لأنى أتعذب.. تذكر هذا جيدًا... إنى أتعذب.. أتعذب.. وفجأة...

اختفى صاحب الوجه الممصوص من أمامه، كأنه ما كان!!..

وشعر الكاتب بهذيان المحموم، وبسرعة أمسك بأوراقه، كأنه قد قرر الهرب من خياله، وقام بكتابة النهاية، واختار لبطل قصته الانتحار غرقًا فى نهر النيل هربًا من عذاب ضميره.. فعلها واستراح، بل وراح فى سُبات عميق فوق مقعده الوثير وسط زحام العيون..

وفى الصباح..

استيقظ من نومه ليجد فوق ساقيه جريدة سوداء الحروف، وبسرعة أمسك بها، كأنه يبحث عن (شىء ما)...

وفى صفحة الحوادث طالعه ـ وسط الذعر ـ خبر صغير زلزل كل خلية حية فى جسده... خبر يفيد بانتحار شاب جامعى يدعى (صلاح مصطفى) من فوق أحد الكبارى العتيقة فوق نهر النيل تاركًا خطابًا صغيرًا يحمل اعترافًا منه بقتله لفتاة حسناء... تدعى (صفاء)!!..

* * *

توتة والحدوتة

وقفت (توتة) على أبواب (الحدوتة).. طرقت.. انفتح الباب فدخلت...

شاهدته مرتكزًا على قلبه، تلقفها بعينيه وكأنه يبثها شوقًا فاض به العمر كله...

بكلمتين... ضاع الزمان مع المكان...

وبنظرتين... الشوق ذاب مع الحنان...

قال لها وهو يعطر الحروف بشفتيه المبهورتين بلقائها:

ـ أحبك منذ التقينا بحلم المساء.. قصيدة عشق جميلة، وطفلة تلون شفتيها بالغناء.. أحبك همسة.. أحبك نظرة.. أحبك لفتة.. أحبك فكرة.. أحبك شهقة عطر تسبق الهواء إلى رئتى.. أحبك ابتسامة تسبق الضياء إلى شفتى... و...

....

....

ذابت (توتة) وسط أوراق اللحظة المتساقطة.. زغرد القلب بين ضلوعهما، صارت نبضات قلبها امتدادًا لقلبه، ونظراتها امتدادًا لعينيه... و...

ـ كأنك تنطق بلسانى... يا أنت... يا أنا... يا سفرًا يمتد من حلم الطفولة إلى تنهيدة الصبا... يا رعشة الظلال والأضواء فوق ملامح أيامى.. لقد انتظرتك عمرًا بأكمله، وها قد حانت اللحظة لاستعادة كل ما فات من لحظات...

....

.. ..

وفجأة... تبخرت صورته من مقلتيها، كأنه لم يكن..

همست... صرخت... انغلقت أبواب الحدوتة فى وجهها...

ولأن دوام الحال من المحال...

أغلقت جفنيها على دمعتين مريرتين...

ونامت!!..

* * *

لقـــاء وذكـــرى

شامخة تبدو كسميراميس الملكة، جميلة كڤينوس العصر، متألقة كأنها كليوپاترا الجالسة أمام (أنطونيو) العاشق...

قالت فى دهاء مثير، نابشة حطام ذكرياته:

- ما انطباعك عندما قابلتنى لأول مرة؟!

●● أحسست أننى أمام قصيدة دفء لم تخطر ببال الدواوين حتى الآن...

برقت عيناها كطفلة شقية، وفى إثارة جهنمية بللت شفتيها بلسانها وهى تقول:

- تعجبنى كلماتك رغم استغراقها فى المبالغة والمجاملة دائمًا..

فى صدق أجاب:

●● إن المبالغة والمجاملة لا تكون حيث تكونين...

ضحكت فى أنوثة طاغية وهى تقول:

●● إن المبالغة جزء من لسانك فلا تزايد أرجوك.. تاهت عيناها وهو يتصفح وجهها فى لهفة وشوق... لم تتغيرى

كثيرًا.. يا شادية... الوجه الطفولى المثير، والعود الملفوف، والنظرات الدافئة الحانية، والشفتان المبللتان بالعسل... لم يتغير فيك أى شىء.. كأن الزمان لا يمر عليك وإنما.. يمر من حولك!!...

- هل مازلت تذكر قصتنا معًا؟..

●● إنها لم تكن قصة، بل كانت حياة بأكملها...

وتمتم بينه وبين نفسه.. تحاولين أيتها الحبيبة نبش قبور الماضى ولا تدركين بأنى أعيش على الذكريات رغم مرور عشر سنوات على آخر لقاء...

- إلى أين ذهبت فى شرودك؟..

●● إليكِ منذ عشر سنوات..

- ألا ليت الشباب يعود يومًا...

●● لقد عاد بكِ... ومعك الآن...

- يا حبيبى... آه كم كنت أحبك...!

قال محاولاً استرجاع شقاوته القديمة:

●● والآن؟!..

ـ لى زوج وثلاثة أطفال، وفوق ذلك كله.. عشر سنوات فوق عمرى...

ثم فى دلال رقيق كجناح فراشة بحرية... سألته:

ـ وأنت؟!

قال كأنه ينزف عمرًا بأكمله:

●● لى زوجة وابنة واحدة هى كل حياتى يا شادية...

ـ ما اسمها؟!

●● شادية...

ـ ماذا تريد؟..

●● هذا هو اسمها... شادية...

همست وكأنها تشاركه نَزْفًا بنَزْف:

ـ يا حبيبى... ألهذه الدرجة كنت... و...

لم تكمل جملتها وكأنها اكتشفت أن الجثة فوق السطح لم تُدفن منذ عشر سنوات..

●● آه كم كنا أغبياء...!

(جملة) لا يعرف ـ حتى الآن ـ من الذى نطقها منهما... ربما هى، وربما هو.. لا يدرى ولا يعنيه أن يفعل...

ـ فلنغلق صفحات الماضى، حسبنا منه هذه الصدفة الجميلة التى جمعتنا بعد تلك السنوات...

●● تقصدين طوال تلك السنوات. لأنك لم تتغيبى عنى للحظة..

ـ تعاملنى ككل النساء...

●● لأنك (كل) النساء!..

ـ عدت إلى المبالغة من جديد..

●● بل عدت إليك يا أجمل الجميلات، يا أبلغ من كل المبالغات...

ضحكت وهى تعود برأسها إلى الوراء قائلة:

ـ لا فائدة.. لا فائدة من ردعك...

اجتاحته رغبة عارمة فى أن يقهر العالم والزمان والمكان، فلم يجد فى عروقه سوى الضعف والاستسلام...

●● آه كم كنا أغبياء...!

سألته فى مرارة:

- هل أنت سعيد؟..

نظر إليها طويلاً فلم تصر على الإجابة وكأنها فهمت:

●● وأنت.. سعيدة؟!

- ابنى الأكبر يملأ حياتى...

واستدارت مبتعدة وكأنها تخفى شيئًا لم تعد تستطيع إخفاءه، تخفى حبها الذى استيقظ من جديد.. وهمس مناديًا:

●● شادية..

والتفتت إليه:

- نعم...

وسألها سؤالاً قفز إلى شفتيه لا يقصد به سوى أن يستوقفها ولو للحظة:

●● ما اسم ابنك الأكبر؟..

ونطقت بالاسم وهى تفر مسرعة تسبقها دموعها...

- إنه نفس اسمك... و...

وغابت وسط الزحام من جديد....

* * *

أبـوك السقـا مــات

لم يسـمح (جمـال أفندى جبـران) لزحـام الطريـق أن يعكر صفـوه، ولا لشـمس الظهيـرة التى أوشكت على صهـر العقول أن تهز خلية واحدة من خلايا سعادته القلبية...

كان سعيدًا هانئًا...

وكيف لا واليوم هو أول الشهـر، ذلك اليـوم التـاريخى الذى تنتظره ملايين الأيادى المتعطشة إلى ماء الحياة؟ النقود..

كـيف لا وقـد عـادت إليــه اليـوم عند صـرف راتبـه تلك الجنيهات الأربعة التى خُصمت منه فى الشهور السابقة بدون وجه حق؟!..

كـيف لا واليـوم هو يوم (اللحم) بكل مـا يحـمله المعنى فى الذهن من إيماءات؟

لقد استيقظ مبكرًا، نشيطًا، دخل الحمام وغسل وجهه، وحلق ذقنه وهو يدندن بموشح (على خده يا ناس ميت وردة)، ثم ذهب إلى المطبخ وأعد لنفسه فنجانًا من القهوة المضبوط.. شربه ثم قام ليوقظ إبنَه الصغير (وليد) من نومه.. لقد وعده

ليلة أمس أن يصطحبه معه اليوم إلى العمل.. بتكاسل شديد استيقظ ابن الرابعة وهو يفرك عينيه متمتمًا:

ـ صباح الخير يا بابا...

التقطته ذراعاه فى شوق وسعادة لتريحاه على شفتين بللتهما حبيبات البن المحروق:

●● صباح الفل يا أجمل ابن فى الدنيا.. يلاَّ بقى اغسل وشك علشان نروح الشغل مع بعض..

فى إشفاق نظر إلى الصغير وهو يلتقط الفوطة من خلف الباب ويتجه كالمنوم مغناطيسيًا إلى الحمام...

ـ بابا.. بابا.. أنا عايز آكل جلاس...

أيقظه نداء الطفل من استعراض أحداث اليوم الحالى، جذبه من يده ليعبر به الشارع قائلاً:

ـ بس كده... من عينىَّ الاثنين يا سيدى...

وبطرف عينه نظر إلى الصغير، وخرجت إلى مربع الصورة كلمات أحد الزملاء إلى ابنه مداعبًا:

ـ أيه الهدوم الشيك دى ياسى وليد؟!..

ابتسم وقتها فى سره وهو يتمتم ساخرًا.. البركة فى ابن الجيران الذى يكبره بعامين يسمحان له بالاستغناء عن ملابسه قبل استهلاكها تمامًا، لم يسمعه الزميل وسط ضجيج الغرفة أثناء تَسلُّم المرتب...

ـ بابا... بابا... عايز ده...

وتتبَّع (جمال أفندى) الخط الوهمى الواصل بين أصابع الصغير والهدف المشار إليه فصعقته الدهشة...

كان هناك ببغاء عجوز موضوع فى قفص ذهبى أنيق.. كومة من الريش المزركش.. كومة فى حجم قبضة اليد... و...

●● أبوك السقا مات... أبوك السقا مات..

اندهش الرجل من الجملة التى نطقها ذلك الطائر العجيب، إنه كثيرًا ما كان يسمع عن ذلك الببغاء الذى يداعب البشر بجملته الشهيرة، الشيطانية الخفيفة الظل...

●● أبوك السقا مات...

صفق (وليد) بكلتا يديه وجرى إلى القفص الموضوع أمام المحل وهو يردد نفس النداء ضاحكًا:

ـ أبوك السقا.. مات!!..

ضحك (جمال أفندى) من أعماقه وقفزت طفولته البعيدة لتستحم فى بريق عينيه، واقترب من القفص وقد توردت أسارير وجهه الممصوص فى إعجاب:

ـ بابا .. عايز من ده...

أيقظه نداء الطفل الماثل أمامه من نداء الطفل القاطن بداخله، وسمع الببغاء يردد كلمات (وليد):

ـ بابا .. عايز من ده...

إن كليهما يريد الآخر!!..

وزادت ضحكة الرجل حتى ذيَّلها السعال.. وفجأة.. توقفت ضحكته عن رغبة مجنونة...

لا بد أن يشترى لابنه هذا الطائر المشاغب مهما كان الثمن.. لماذا لا يحقق لهذا الصغير رغبته ولو لمرة واحدة؟..

إنه ـ أى جمال أفندى ـ لا يذكر أنه اختار شيئًا لنفسه منذ أن وعى الحياة.. دائمًا مُسيَّر غير مُخَيَّر، وها هى الآن تتجلى فرصته الوحيدة لإرضاء الطفلين معًا .. وليد وجمال.. إنه أيضًا يريد امتلاك هذا الببغاء.. يريده أكثر من ابنه الصغير..

وبلا تردد..

دخل المحل ليخرج منه ـ بعد دقائق ـ وفوق شفتَىْ طفله ابتسامة مَن مَلك الدنيا وزينتها، وبين يديه ذلك القفص الذهبى وبداخله الببغاء المشاكس بعد أن دفع راتبه بأكمله، باستثناء بضعة قروش هى كل ما تبقى لزوجته.. زوجته!! وأفاق الرجل من طفولته مكتشفًا حجم المأساة التى أوقع نفسه فيها.. كيف فعل هذا؟.. كيف؟..

بل المهم، والمهم جدًا، كيف سيحمل إلى زوجته هذا الخبر؟

إنها ـ بالتأكيد ـ سوف تُصعق، بل وستتهمه بالجنون... هل يعيد الببغاء إلى البائع معتذرًا؟!

وبطرف عينه نظر إلى السعادة المرتسمة على وجه (وليد)، وتخيل منظر زوجته وهى تولول وترعد وتسب له وللطفل وللببغاء اللعين، وفى استهانة تحدى وجهها المرتسم أمامه متمتمًا فى هدوء:

●● أبوكى السقا.. مات..

وقبض على الكف الصغيرة، ومضى يعبر بها الشارع الطويل..

* * *

وَشْـــم فرعونـى

كانت العصافير تنقر حبات القمح بالفناء، وكان الديك يعلن من خلف ستائر الندى ميلاد فجر جديد لليلة حُبْلى بالأحداث التى سوف يذكرها التاريخ باقتضاب حروف تلغرافية...

وبعيون مرهقة خاصمها النوم لعدة ليالٍ نظر (معصوم) إلى ذلك الرجل الحديدى (هوارد كارتر) بإعجاب لا يخلو من الدهشة... إعجاب بإصراره الغريب الذى استغرق - حتى الآن - ستة أعوام فى البحث والتنقيب عن شىء غير معلوم، شىء غير واضح المعالم.. لكنه - كشأن كل رجال البحث والتنقيب عن الآثار - كان مدفوعًا بإحساس خفى على الاستمرار، حتى ولو كلفه هذا الاستمرار حياته، وحياة من معه من الرجال.. ستة أعوام والرجل لا يكف عن إعطاء أوامره الصارمة بالإنجليزية:

- لنحفر هنا... لا بأس.. فلنواصل الحفر هناك... ما هذا؟! يبدو أننا قد ابتعدنا بعض الشىء عن الهدف...

الهدف!!.. أى هدف تريد ياهذا؟!.. إن كل شبر فى وادى الملوك والملكات يشهد بأننا قد بحثنا فيه ولم نظفر إلا بالفشل..

ـ معصوم.. إنك دائم الشرود هذه الليلة، هل تريد شيئًا من الراحة؟!..

أفاقته كلمات الرجل الباردة كرائحة المقابر فرد قائلاً:

●● كلا يامستر كارتر.. إن راحتى الحقيقية هى أن نجد ما تبحث عنه...

وغامت عينا الرجل وسط ظلمة السرداب البارد وانعكاسات أضواء المشاعل البدائية والكشافات، وغمغم قائلاً فى مرارة:

ـ ما نبحث عنه!!.. إننى كالذى يرى طيور النورس وسط الأمواج المتلاطمة دون أن يرى الشاطئ، أو كالذى يرى أغصانًا عائمة تؤكد له أنه يقترب من غابة هائلة فى أعماق البحر.. ولكن.. أين هى؟.. أين هى؟..

وكأن الرجل أدرك أنه قد أخطأ فى محاولته التفكير بصوت مرتفع أمام رجاله الذين أكلت المعاناة صبرهم الطويل، إذ سرعان ما استدرك قائلاً:

ـ لكننى متأكد أننا سوف نصل قريبًا إلى ذلك الكنز المختبئ الآن تحت أقدامنا..

وجاءه صوت ضعيف، واهن لم يتبين مصدره:

●● متى يا مستر كارتر.. متى؟!

وألقى الرجل بلفافة تبغه التى طحنت فِلْترَها الطرى أسنانه الحادة وقال:

- لا أعرف بالضبط متى، ولكننى أعرف أن هذا اليوم قد أصبح قريبًا جدًا، كاقتراب تلك الأتربة اللعينة من أنوفنا..

وضحك البعض من عصبية الرجل المعروف بالهدوء والبرود، وصرخ واحد منهم وكأنه يتعجل ذلك اليوم الحلم:

●● لنكمل الحفر إذًا...

ودبت حركة ساخنة وسط السرداب المظلم، وتمتم كارتر بينه وبين نفسه:

- آه من هؤلاء الرجال البدائيين، أحفاد الفراعنة، إنهم لا يقلون إصرارًا عنى، وقد يزيدون، أنا واثق بأننى لو أمرتهم بالكف عن البحث، فلن يطيعنى واحد منهم.. إن دافعهم الأول ليس تلك القروش الضئيلة التى أدفعها لهم.. إن فى حياة كل منا رغبة كامنة فى الاكتشاف والوصول إلى كنز غير معلوم قد تهون الحياة فى سبيله...

وخُيِّل إلى (كارتر) أن ذلك الشاب الأسمر، الفارع الطول، الذى يقف بجواره قد سمع ما ردده بينه وبين نفسه، فنظر فى عينيه طويلاً ثم احتدَّ عليه قائلاً بلكنته العربية البدائية:

ـ لماذا تنظر إلىّ هكذا يا معصوم، هل تعتقد أيها الأبله أن دائرة البحث تبدأ من فوق وجهى؟.. انصرف من أمامى لمعاونة زملائك..

وانتفض (معصوم) من مكانه وانضم إلى بقية الرجال وهو يتمتم بكلمات نوبية، وعيناه تبرقان بريقًا مخيفًا، يزلزل صدر الرجل الحديدى ويرعش أطرافه...

وفجأة..

شعر الجميع بأن الأرض تتحرك تحت أقدامهم، وصرخ واحد منهم وسط الغبار:

●● إن هناك شيئًا يتحرك.. انظروا إلى هذا الشىء.. إنه سرداب عملاق... و...

وأُصيبت حركة الجميع بالجنون، وصرخ كارتر:

ـ لقد وجدتها... وجدتها...

ولم تمض سوى بضع ساعات حتى كان الجميع أمام الكنز.. كنز مقبرة توت عنخ آمون الذهبية.. ووسط العدسات والفلاشات وزحام رجال الصحف والآثار بحث كارتر بعينيه عن (معصوم) فلم يجده.. أين ذهب ذلك النوبى الغبى؟.. إنه يريده.. يريد أن يُشْهده على نجاحه وأن يطالبه بكشف اللثام عن السر وراء بريق عينيه وسط الظلام، ذلك البريق الذى يشبه بريق أعين قطط المعابد الفرعونية.. وطال بحثه عن (معصوم) بلا جدوى...

ووسط الزحام تقدم (كارتر) من التابوت الضخم المستقر فى منتصف المقبرة، وبحنكة رجل مدرب عالجه بقطعة حديدية وفتحه، وبمجرد أن نظر إلى وجه المومياء المحنطة، الراقدة بجوف التابوت، حتى صرخ صرخة مدوية، وسقط مغشيًا عليه وسط دهشة الحاضرين، وامتدت العيون إلى حيث نظر، وعرف الجميع السر وراء صرخته الساحقة...

لقد كان (معصوم) يرقد محنطًا داخل التابوت العتيق!!..

* * *

شـــرف المحـــاولـة

من القاع مثل (سيزيف) يحمل حجرًا، ليصعد به إلى أعلى الجبل، وما إن يضعه فوق قمته موشكًا على التقاط أنفاسه، حتى يسقط الحجر مرة أخرى إلى قاع الوادى..

وهكذا ـ إلى ما لا نهاية ـ يحمله ويصعد، فيسقط، ويهبط ليحمله من جديد..

هكذا حكمت الآلهة على (سيزيف) وهكذا حكم الزمان عليه؛ حتى يسقط مثل الحجر الملعون ليحمله غيره ويهيل عليه تراب الأحذية.... والألسنة!!..

ـ هل أحضر لك كأسًا؟..

نظر إليها وكأنها تخاطبه بأبجدية لا يعرفها، ضحكت فى نعومة ثمرة طازجة وهى تقول:

ـ لعلّها تريحك وتريحنى!!..

يتجاهل سم الأفعى الذائب فى كأس الكلمات، ويتمتم من بين التجاعيد بكلمات غير مفهومة...

ـ تنظر إلىَّ وكأنك تُحسنى حقًا...

ابتسم فى عجز أليم، وألم عاجز:

●● الخطأ يكمن فيك...

قهقهت بصوت مرتفع، ورددت فى عصبية:

ـ حجة البليد!!...

واصل وكأنه لم يسمعها:

●● تبدئين بالشجار وتنسين دائمًا أن القبلة تبدأ.. بهمسة دافئة.. أشاحت فى وجهه وكأنها قد ضاقت بصبر أيوب:

ـ تبدأ أنت دائمًا بتوجيه اللوم لى...

ثم لنفسها بصوت تسلل إلى أذنيه:

ـ كان ينبغى الإنصات إلى نصيحة أمى..

فى تماسك مفتعل، ضغط أسنانه ببعضها متمتمًا:

●● وبماذا نصحتك شجرة الدر ياترى؟..

نظرت إلى أصابعها ثم التفتت إليه، ثم عادت إلى أصابعها قائلة فى خوف هامس:

ـ أن أرفض الزواج منك... و...

صرخ وكأنه يكمل لها أسطوانة يحفظها جيدًا:

●● لأنى عجوز يكبرك بخمسة وثلاثين عامًا، ولأنك يا ست الحسن والجمال فى ريعان الصبا والشباب.. أليس كذلك؟!

ـ نعم وبكل أسف...

●● اخرسى..

حاول أن يتماسك بصعوبة ويغمغم:

●● لقد كنت قطة ضالة فانتشلتك من البؤس والجوع.

رفعت إليه عينيها فى تحدٍّ:

ـ لقد انتشلتنى من البؤس حقًا، أما الجوع فلا أعتقد.

فى تهكم مرير قال كأنه يتثاءب:

●● حينما يتزوج الفقر بالشيخوخة تصبح الشكوى ثالثهما.. أليس كذلك.. لقد سمعت شجرة الدر ذات يوم تسمم عقلك بهذه الحكمة الشيطانية...

نظرت إليه كأنها تود أن تنشب أظافرها فى عنقه المعروق، بادلها نظراتها بابتسامة لزجة كبطن الضفدعة.. تماسكت.. وفى غيظ مكتوم قامت لتجمع الأطباق الفارغة من فوق المائدة، تمايلت أردافها فى إثارة متعمدة داخل قميص نومها الوردى أمام عينيه... مسكينة يا لواحظ.. إنه يشعر بآلامها ولكن.. ما باليد حيلة...

منذ متى لم يقترب منها؟...

ياه... يبدو أنه فقد ذاكرته أيضًا!!..

إنه حديث بعيد كذكرياته داخل رحم أمه...

ـ لولا أنك والدى لاتهمتك بالجنون...

●● اخرس يابن الكلب، أتظننى أنجبتك فى الحياة لتسلبنى الحق فى ممارسة حياتى كما أريد..

ـ تريد الزواج من فتاة فى عمر بناتك...

●● وما المانع مادمت قادرًا؟..

ـ فعلاً.. إنك قادر...

●● ضع لسانك داخل فمك وإلا...

ـ وإلا ماذا؟...

●● وإلا حرمتك من كل شىء...

ـ أنا لا أريد منك شيئًا إلا أن تنسى أنك أبى بعد اليوم...

●● على الرُّحْب والسَّعَة...

ما أقسى أن تتمرد حبة القمح على السنبلة..! طفل الأمس القريب الذى كان ينام على صدرى يريد أن يجردنى من حقى الطبيعى فى الحياة؟...

يريد منى أن أُسجن وحيدًا داخل تلك الجدران المالحة بعد أن ذهبت رفيقة عمرى إلى باطن الأرض...

- هل أحضر لك كأسًا؟..

ابتسم فى ضعف وهو ينسلخ عن ذكرياته وأجابها وكأنه يستسلم لجنونه:

- هاتى...

فى دقائق أحضرت له كأسًا وجلست أمامه يسبقها عبيرها، تحسسها بعينيه.. شرسة كأنثى العقرب...

(يقولون إن الإشعاعات الذرية لا تؤثر على العقارب، ولو قامت الحرب الذرية فسوف يكون الفَناء لكل الكائنات الحية إلا العقارب).

●● تبتلع لسانك دائمًا مع الرشفة الأولى من الكأس الأولى...

يومًا ما قالت له رفيقة عمره الراحلة وهى تنكمش فى صدره كفراشة رقيقة فوق غصن مهتز:

- حينما تصمت هكذا، أسمع فى صمتك أحلى الكلمات،

وحينمـا تضع فى أذنى قـرطًا من هـمسـاتك، أشـعـر بأنـنى ملكة متوجة تتدلى كل كنوز الدنيا من أذنيها!

آه، كم افـتـقـدتك ياقـرة عينـى ولحم عنقـى..! لست خـائنًا بالزواج من بعـدك.. كـلا.. إننـى كـالغـريق الذى يتشـبث بـالقـشـة وسـط الأمواج المتلاطمة...

- صبى لى كأسًا آخرى...

فى غيظ تمردت قائلة:

●● الكأس الثانية ستجلب لك النوم... و...

صـوب إليـهـا نظـرة رصـاصـيـة أخـرسـتـهـا فلم تكمـل غـيـر الكأس الفـارغـة... منحتـه الكأس مـصـحـوبةً بنظـرة اسـتـخـفـاف وقحة...

(عند حـدوث اللقاء السـماوى بين القـمر والأرض والشـمس فى نقطة واحدة تزداد نسبة الجرائم فوق الأرض)

وغمغم بينه وبين نفسه:

- يـبـدو أننـى تزوجـتـك يا لواحـظ عند حـدوث ذلك اللقـاء الفلكى... ثم... وكـأنه قـد قـرر أن يشـركـهـا فـى حـواره الداخلى، همس قائلاً:

- هل تعرفين يا لواحظ أن إله الخمر (باكوس) قد شرب الخمر حتى فقد رأسه ولم يعثروا عليه إلا أخيرًا..

فى غباء نظرت إليه، ومصمصت شفتيها فى سخرية قائلة:

●● ربنا يشفى!!..

ضحك من سذاجتها ولم يعلق... مسكينة يالواحظ.. إنه مشفق عليها ولكن ما باليد حيلة، إن الرغبة تنطفئ بصدره بمجرد اشتعالها وهو الفارس القديم الذى التفت أنفاسه حول الكرة الأرضية ذات يوم بعيد، ولم يلهث!!..

دخل الوهن عظامه بلا استئذان، وأصبحت التجاعيد سيدة لوجهه المعروق بلا سابق معرفة، واجتمع عرق النَّسَا والروماتيزم والبروستاتا وقررت الإقامة بجسده دون خلو أو مقدم..

- صدقنى.. قطعة حلاوة طحينية وقطعة مخدرات وبلحة جوز الطيب وافركها معًا ثم كُلْ وتوكل.. وادعُ لى بعد ذلك..

هكذا قال له صديق عمره (رشوان) فى آخر لقاء لهما منذ سنوات، وبعدها بساعات سافر رشوان فى صفحة الوفيات ولم يعد!!

وها هى قطته الصغيرة تضع كلتا يديها فى حجرها وتنظر له فى رجاء... لا بد أن يحاول ويكفيه شرف المحاولة، حتى وإن فشل...

إن الأمل كلمة مذكرة، وما عليه سوى أن يجرب مفرداته المذكرة بلا إعراب أو بلاغة!!..

وبلا مقدمات أخذها من رجائها...

أخذها بصعوبة كما يأخذ أنفاسه اللاهثة...

بدأت دوائرها تتعرج فى إثارة جهنمية، رائحتها تتكلم بكل اللغات.. يفهمها بلا ترجمة، ثناياها تتبسط فى كسل بطىء، كسل مستسلم رغم طمعه فى الغنيمة، وبدأت أنفاسه تتلاشى وأعصابه تخور، إن مفاصله ترتعش كأوراق الشجر فى ليلة عاصفة ولكن لا بد أن يستمر... إنه لا يستطيع أن يتوقف... إن ظهره يتمزق، يتفصد عرقًا باردًا، الرحمة يا لواحظ...

إننى أستحلفك بضعفى أن ترحمينى.. أريد أن أرتاح... أن ألتقط أنفاسى.. أن أصرخ.. إن صدرى ينقبض ولا ينبسط... الملح يملأ عينى فيُفّقدنى الرؤية.. ما هذا الظلام .. أين أنتِ يالواحظ... ما الذى حدث؟... لماذا تصرخين؟...

لماذا تضغطين على قلبى بكلتا يديك؟..

لماذا تغلقين عينىَّ براحتيك وتولولين؟..

إننى عاجز عن الفهم.. عاجز عن مشاركتك الصراخ...

عاجز عن مجرد المحاولة!!..

* * *

الكلاب تشرب الشاى أحيانًا

قرر (منصور) أن يقتل (عنتر)...

قرر ذلك بعقله الصغير الذى لم يتجاوز ستة أعوام...

عقله الذى لا يريد أن يصدق أن أمه كانت عارية منذ ساعات بين أحضان ذلك الكلب الكريه.. عنتر...

كيف هانت على أمه نفسها؟..

بل كيف هانت نفسه عليها؟..

هذه المرأة «السا....».. إنه لا يستطيع أن يسبها.. إنها أمه.. أمه التى أوصاه الله خيرًا بها.. أمه التى استباحت لنفسها أن تمرغ شرفه فى الوحل بعد رحيل والده بأقل من عام...

وبعينين مليئتين بالدموع أخذ يستعرض ـ للمرة المائة ـ خيوط قصته مع (عنتر) بقال القرية وحلم الصبايا والنساء..

إن كل أطفال القرية يحبون (عنتر) لأنه يمنحهم ـ من وقت لآخر ـ حبات (الطوفى) وقطع (الكراملة) وفتات أقماع السكر

الماكينة.. كل أطفال القرية يحبونه إلا (منصور).. إنه يكرهه لله فى لله، يكرهه بدون سبب، ربما لمداعباته الوقحة للنساء والصبايا عند البيع، يقرص تلك، ويمسك بالأخرى من ثديها فى حركة يحاول جعلها عفوية غير مقصودة فتفضحه عيناه الشرهتان، أما الغريب ـ فى عين منصور - فهو أن النساء يستسلمن لوقاحته طمعًا فى بعض الجرامات التى يضيفها إلى ميزان البيع، كلهن يذهبن إليه إلا أمه.. كانت ترسله إليه أكثر من مرة يوميًا فيذهب مضطرًا للشراء، حتى جاء ذلك اليوم المشئوم..

كان معتادًا على النوم بجوار أمه منذ وفاة والده، كان شريكًا لها فى لقمتها وسريرها وأحزانها على والده، حتى استيقظ من نومه منذ ساعات ليجد نفسه نائمًا على أرض الغرفة فوق إحدى البطاطين.. مفزوعًا قام من نومه فوجدهما عاريين.. عنتر وأمه...!

صرخ فزعًا...

تحول إلى رجل صغير، حاول أن ينشب أظافره فى جسد عنتر، فوجئ بأمه تنهض من سريرها كما ولدتها أمها لتنهال عليه بالصفعات كى يبتعد... لم يصدق، لم يستوعب عقله الصغير ما يحدث.. صرخ.. بكى.. انهار نابحًا مولولاً، ومن

خلال دموعه رآه.. (عنتر الكلب) يرتدى جلبابه فى عجل ويخرج مهرولاً، وانهالت عليه أمه صفعًا وركلاً كلبؤة شرسة:

●● عامللى راجل يا عين أبوك... ودينى لاموِّتك..

إن ضرباتها لم تؤلمه.. كانت آلام قلبه الصغير أكبر من آلام ضرباتها على الرغم من شدتها وقسوتها...

ومن كثرة الأنين والنحيب والبكاء، نام (منصور) ولم تنم جراحه.. وفى الصباح، انتفض مُرهقًا، تعيسًا كأنه كهل عجوز، شعر برغبة فى الغثيان فلم يقاوم، كأنه يلفظ من معدته كل ما اشتراه بالأمس من (عنتر)..

ورآها فى أحد أركان الدار، مشغولة بشىء ما فى يديها، لم يحاول أن يتبينه، أحست بخطواته، لم ترفع عينيها إليه.. جاء إليه صوتها يكسوه تهديد متردد:

●● أنت صحيت يا غراب البين، امشى انجرّ هات لنا بقرشين شاى وقرش سكر..

توقفت الكلمات فى حلقه، وقف مشدوهًا كالأبله ينظر إليها وهى تضع يدها فى صدرها لتخرج منديلاً صرَّت به بعض النقود، وناولته القروش الثلاثة وهى تنظر إليه شَزْرًا..

شعر بالخوف منها وهو يمد يده ليمسك بالقطع المعدنية.. أخذها وخرج وهو يسمعها تردد داعية:

●● روح إلهى أشوف فيك يوم يا منصور يابن بطنى.

مشاعر جديدة تسللت إلى قلب (منصور).. الغربة.. الخوف.. الإحساس بالضعف والمهانة.. الغربة عن كل الناس حتى أمه، والإحساس بالضعف أمام كل الأشياء والأشخاص حتى (عنتر)!!..

كيف يمكنه قتل عنتر؟.. إنه لا يعرف...

ولو استطاع أن يعرف، كيف يستطيع أن ينفذ ذلك وهو الطفل الصغير، الضئيل الجسم، ذو السادسة من العمر... إن إحساسه بالضعف والمهانة والخوف يدفعه إلى محاولة التناسى أو النسيان أو... تأجيل النية...

وأثناء سيره فى دروب القرية اعترضه كلب مسعور، أمسك بحجر كبير ورفعه فى الهواء مهددًا ففر الكلب هاربًا...

يارب.. ما حاجتنا إلى الكلاب، ألا يكفى عنتر؟!

واستمر (منصور) فى طريقه ومازالت قطعة الحجر فى يده.. واقترب من دكان عنتر... نفس الزحمة ونفس الدعابات

والضحكات كأن شيئًا لم يكن.. كأن ما حدث ليلة الأمس كان كابوسًا مزعجًا.. وبدون أن يدرى رفع (منصور) يده الممسكة بقطعة الحجر إلى أعلى، ورآه (عنتر) فتسمرت قدماه، كأن (منصور) قد تحول بين ليلة وضحاها إلى رجل يمسك ببندقية، وتوتر المكان بصمت قاتل تترقبه العيون والقلوب...

الطفل يقترب غاضبًا رافعًا قطعة الحجر والرجل يتراجع أمام النساء خائفًا.. و...

●● بقرشين شاى وقرش سكر..

وبسرعة استدار الرجل ليحضر للطفل ما طلب، وهبطت يد (منصور) بالحجر إلى أسفل.. وناوله (عنتر) ما طلبه وهو يحاول أن يبتسم رافضًا أن يأخذ منه القروش الثلاثة...

- دول هدية منى ليك يا منصور...

وأدار الرجل ظهره للطفل وكأنه يشجعه على الانصراف.

وانصرف (منصور) ويده مطبقة على القروش الثلاثة بقوة.. قوة شديدة.. كأنه يخفى عاره بداخلها..

يخفى ثمن أمه...

و... شربت أمه الشاى!!..

* * *

الصـــرصـــــار

منقلبًـا على ظهـره كـأى شـىء حـولك.. يرفـع أرجله فى فـزع إلى أعلى، يرفس الهواء بحثًا عن طوق النجاة بلا فائدة...

من ينقذ صرصارًا منقلبًا؟..

ـ لا تحاول معى... لقد انتهينا عند هذا الحد وكفى..

●● تطالبيننى بالكف عن الحياة فى بساطة..

ـ كفى حديثًا ناعمًا، الحب (فعل) وليس مجرد كلام..

●● أنا أحبك.. صدقينى..

ـ والدليل؟..

●● حاولى أن تفهمينى..

ـ فهمتك إلى درجة الشك فى فهمى لنفسى..

يحرك قرنَىْ استشعاره فى توسل من يبحث عن المستحيل بلا فائدة، وجريدة اليوم تصفعك على قفاك بمانشيت كبير.. تعيين آلاف الخريجين يبدأ خلال الشهور القادمة..،

ـ نتزوج...

●● كيف؟..

ـ تأتى لمقابلة والدى وتطلب منه يدى...

●● وماذا عن طابور المستحيلات.. الشبكة والمهر والشقة والخلو والجهاز و...

ـ إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة...

●● تقصدين تبدأ بحفرة..

ـ أفهم من هذا أنك لا تريد..

●● من منا يستطيع أن يفعل ما يريد؟..

ـ إذًا لنفترق...

يتحرك بظهره داخل بلاطة رطبة.. يصطدم بقشة جافة، يجدف بالأرجل مجتمعة فى حركة تشنجية ولا يمسكها، يحسها بظهره ولا تطولها أرجله، يحس بالأرض ولا يستطيع أن يلمسها بأقدامه...

ـ تخيلت أنك تحبنى..

●● إنها الحقيقة الوحيدة وسط غابة من الأكاذيب..

ـ لكل حقيقة أكثر من برهان..

●● لا أستطيع...

الرطوبة تنهش ظهره، تسترخى الأرجل تدريجيًا حتى تسكن، يصبح الاستسلام للأمر الواقع هو أقصى درجات المقاومة..

تسكن المرارة شفتيك...

الباب المغلق يجدع أنفك...

تصبح مثله...

منقلبًا على ظهرك...

يغتالك صوت من مذياع أبله...

(الحياة بقى لونها بمبى)...

تضحك من هول المأساة.. وتراه...

ذلك الصرصار المنقلب على ظهره..

مثلك يضحك!!..

* * *

محجوبة لم تعد كذلك

«محجوبة»...

لا يوجد فى قريتنا الصغيرة من لا يعرفها أو لا يعرف قصتها... إن لقصتها جذورًا تمتد فى ذاكرة كل منا حتى النخاع...

من منا لا يذكرها، بثوبها المهلهل، الممزق فى أكثر المواضع التى ينبغى عليه سترها، ووجهها المبعثر التقاطيع ذى العينين المختلفتَى الاتساع، وأنفها الذى يبدو كمؤخرة فأر عجوز، وشفتيها الباهتتين اللتين هربت منهما الحياة منذ مولدها...

من منا لم يلهب ظهره عكازها الشهير فى طفولته، ولم يخدش أذنيه لسانها الذى فاق ذلك العكاز طولاً؟..

كانت محجوبة هى المصدر الوحيد لخوفنا ليلاً وسخريتنا نهارًا، كنا نقذفها بالطوب فى وَضَح النهار ونزفها بالصراخ والضحكات الساخرة، وكأننا نعاقبها على خوفنا منها وسط ليلنا المشبع بالأشباح والحواديت المفزعة عن النداهة والجنيّة وأبو رجل مسلوخة... و... محجوبة...

ولهذا السبب كانت محجوبة قليلة الظهور نهارًا، ولنفس السبب أُطلق عليها اسم (محجوبة) نسبة إلى احتجابها طوال اليوم....

كنا نقطع القرية بحثًا عنها وفى يد كل منا قطع الطوب والحجارة، وكأننا جيوش صغيرة أعدت العدة للحرب ضد هذه المسكينة التى كانت بدورها تتفنن فى الاختفاء عنا هربًا من قسوة الطفولة التى فاقت قسوة الكبار عليها...

كانت تختفى تارة بين أعواد الذرة فى غيط (أبو اسماعين) فى نهاية القرية، وتارة فى عشة الخالة (شلباية) التى تبيع الشاى على الجسر لسائقى عربات النقل، وتارة خلف ساقية (الجيارين)، أو فى جرن (عبد الصمد) أو فوق ماكينة الطحين...

كانت تختبئ وكنا نجدها غالبًا...

كأن قدرها أن تختبئ، وكأن قدرنا أن نبحث عنها لنجدها، مذعورة كأنها الذعر يمشى على قدمين، وما إن نكتشفها حتى يرتفع عكازها الشهير فى الهواء، فندرك أن ساعة الصفر قد

بدأت، فننهال عليها من كل صوب بما تحمله أيدينا الصغيرة من طوب وحجارة فتعريد الشتائم فوق شفتيها لاعنة كل ما نمتُّ له بصلة من قريب أو بعيد بينما يتحرك عكازها فى كل اتجاه ليصيب منا من يصيب، ولا تنفض تلك الحرب إلا بتدخل أحد المارة من رجال القرية أو نسائها، فنسرع بالفرار وضحكاتنا تسبق خطواتنا تاركين تلك المسكينة تلعق دماءها وتتحسس جروحها فى بكاء وعويل وهى تولول:

●● ربنا ينتقم منكم.. ياكلاب ياولاد الكلاب...

ويبدو أن أبواب السماء قد فُتحت على مصراعيها ذات يوم لدعائها، إذ فوجئ أهل القرية بوفاة الحاجة (نبوية) زوجة حضرة العمدة وأم (حسان) زعيم أطفال القرية وقائدهم المظفر فى حروبهم ضد (محجوبة)...

وبكى أهل القرية شباب (نبوية) وطيبتها ومساعدتها للصغير قبل الكبير، وعم الحزن فى الصدور وتوقف الأطفال عن البحث النهارى عن (محجوبة) باختفاء (حسان).. عمدتنا الصغير..

كان علينا أن ننتظره، ولم يستمر هذا الانتظار طويلاً، فقد عاد إلينا بعد أسبوع من وفاة أمه..

لا..

لم يكن (حسان) هو الذى عاد إلينا.. إلا إذا اعتبرنا ذلك الشبح الهزيل الذابل الوجه والأطراف هو (حسان).. وحاولنا إضحاكه ففشلنا، وحاولنا إعادته إلى طفولته المنطلقة بأن هتف واحد منا قائلاً:

- ماتيجوا ندوّر على محجوبة..

وهتف كل الصغار وكأنهم قرروا المشاركة فى الخطة:

●● ياللا بينا يا حسان...

وسار حسان بيننا مهمومًا حزينًا، مثل قشة فى مصرف صغير، وبحثنا عنها ووجدناها...

وبسرعة تكونت من حولها دائرة من الأطفال والحجارة، وارتفع العكاز ملوحًا، وفجأة.. صرخ (حسان):

●● كفاية.. حرام عليكم...

وجـرى بسـرعـة إليـهـا، وتوقـفت أيدينا والدهشـة تملأ وجوهنا...

ما الذى حدث؟..

إن حسان كان دائمًا معنا عليها، بل كان قائدنا فى كل معاركنا السابقة، فما الذى حدث؟...

هل تخلى القائد عن جنوده فجأة، ومن أجل من.. من أجل محجوبة؟..

وانتظرنا منه أن يتكلم... ولم يتكلم...

كل الذى فعله أنه اقترب منها وبطرف جلبابه الصغير أخذ يمسح الدماء عن وجهها وهو يهمس باكيًا:

ـ معلهش... معلهش يا أمى...

وسقط العكاز من يد محجوبة، ونظرت إليه طويلاً بعينيها المختلفتَى الاتساع ثم... احتضنته وهى تولول فى رعشة:

●● يا ضنايا يا ابنى... خلاص... خلاص...

وقامت وهى تتعكز عليه وسط دهشتنا جميعًا، كأننا فى حلم غريب أبعد من أن تدركه عقولنا...

ونظر كل منا فى عين الآخر وهالنا ما رأينا..

لقد كانت الدموع تملأ كل العيون...

ومن يومها...

لم تعد محجوبة كذلك!!..

* * *

بصلة المحب

مع جدته خرجت أمه لأداء واجب العزاء فى وفاة زوجة حلاق القرية.. ومع (سعاد) جلس الصغير فى فناء الدار...

وإذا غاب القط لعب الفأر...

وسعاد فتاة ريفية مكتملة الأنوثة لا تشبه الفأر إلا فى رغبتها المحمومة فى ممارسة لعبة الحياة بعيدًا عن العيون، فالجوع كافر وسعاد أرهقتها تضاريس الصبا وحولتها إلى قطعة زبد طازجة تحلم بالانشطار على حافة سكين حادة، ولأن الرياح لا تأتى بما تشتهى السفن، فقد رضيت سعاد بأن تقطع صيامها وأن تفطر على بصلة، ولم يكن هذا الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السابعة سوى هذه البصلة...

إنه لن يدرك ما يحدث ولن يبادر بفضحها وسط شباب القرية، كما وأن بصلة المحب خروف..

لقد اكتملت عناصر اللعبة..

طفل لم يعرف وجع اللزوجة بعد، وفتاة عرفت لون النبيذ يزورها كل شهر، كلاهما وجهًا لوجه، يجلسان فوق حصيرة

مهترئة وبينهما علبة من السكر.. باليد الراغبة المرتعشة تضع فى فمه ملعقة السكر، ثم تطالبه بأن يذيقها ما يتذوقه بأن تقبله فى رقة تتصاعد تدريجيًا إلى العنف بازدياد الحرارة فى جسدها والبلاهة فى عينيه...

إنه لا يدرك لماذا تشده سعاد من جلبابه، أهى الغيرة من جلبابه الجديد، ومحاولة منها لتمزيقه، أم ماذا؟!

- تعال..

●● اتركينى...

- سأمنحك كل ما فى العلبة من سكر...

إغراء جسيم لا يستطيع مقاومته... ليكن.. جلس بجوارها وهو يقترب منها تلقائيًا ليوفر عليها مهمة جذبه من جلبابه وليرى مدى امتلاء العلبة بالسكر.. وأحس بها تضعه فوق فخذيها وتضمه إلى صدرها... صدرها طرى... آه... لقد عرف السبب الحقيقى وراء اختفاء الكوَر الشراب التى يصنعها... إن هذه الفتاة تسرقها لتخفيها فى صدرها لتلعب بها بمفردها... الملعونة... سوف يضربها بعد أكل السكر والانتهاء من تلك اللعبة السخيفة... وأحس بالسخونة تملأ

أنفاسها.. إن هذه الفتاة مريضة بلا شك، إنها تعتصر شفتيه بشفتيها، تريد أن تسرق بلسانها حبات السكر من فمه، إنها تعتصر ضلوعه.. إنه يختنق.. يتمرد صارخًا:

- كلاًّ...

●● اخرس...

قالتها له بصوت متقطع غليظ، شعر بالخوف فاستسلم.. أنامته على طرف الحصيرة ونامت فوقه فصرخ متألمًا...

- اخرس...

جذبت طرف الحصيرة فوقهما فقال لها مبهورًا:

- انتظرى...

نظرت إليه فى دهشة دون أن تنهض من فوقه، مد يده إلى علبة السكر الملقاة بجوارهما، حاولت إبعادها عن يده، تمسك بها، ضحكت غير مكترثة... و... دخلت معهما علبة السكر أسفل الحصيرة المهترئة!!

* * *

قطة بلا قرنىْ استشعار

إنها قطة مجنونة بلا قرنَىْ استشعار ولكنه يعشقها.. إن جنونها يهز إيقاع أيامه الرتيبة ويريك خطواتها، وهو سعيد بجنونها، وهى مجنونة بسعادته!!..

فى أول لقاء بينهما همست فى أذنيه:

ـ معاك كام فى جيبك؟..

نظر إليها كأنه لم يفهم وهمس مندهشًا:

●● كام يعنى أيه؟!..

ـ فلوس يعنى...

أخرج ما فى جيبه من نقود وهمَّ بعدِّها، فاختطفتها منه وهى تضحك قائلة:

ـ ما تعدش ياعم.. خليها بالبركة كده..

وسبقته بعدة خطوات وهى تكور النقود بين أصابعها ثم ناولتها لأحد الشحاذين الملتفين حولهما.. صُعق.. كاد أن يصفعها من الغيظ... لقد أخذت كل ما معه وأضافت إلى الشحاذين شحاذًا جديدًا، صرخ فيها رغمًا عنه:

•• أنتى أكيد مجنونة...

نظرت إليه وانفجرت ضاحكة وهى تضرب كفًا بكف، وهو يردد فى إصرار:

•• فعلاً.. أنتى أكيد مجنونة...

ولم تعلق، وحينما بدأت ضحكتها تخفت بعض الشىء أخذت تمسح دموعها بكلتا يديها وتمتمت وسط سعالها:

- معلهش، ولا يهمك.. تتعوض.. بس كان لازم ترمى كل الفلوس اللى معاك علشان نبقى زى بعض..

وفى المقابلة الثانية شربا حتى الثّمالة، وشعر أن لسانه أثقل من أهرام الجيزة، وبصعوبة همس فى أذنها:

•• سوسن..

- نعم..

•• أيه رأيك لو...

وقاطعته فى سرعة:

- ماعنديش مانع...

نظر إليها فى دهشة، وقال فى غضبة طفل صغير:

•• مش لما تعرفى أنا قصدى أيه الأول..

اقتربت من وجهه، ووضعت قطعة من الشمس بين شفتيه وهمست فى إثارة:

ـ أنا عارفة قصدك وموافقة..

وأدار عربته إلى بيته وهو يوشك من فرحته أن يفيق..

* * *

وجهها دائرة فاكهة، فلجة أسنانها تبدو كلما ضحكت كبثقة من النور..

فى منتصف الحجرة وقفت مرتدية بيجامته الحمراء، واضعة كلتا يديها فى خصرها..

ـ شايف الجمال اللى يتلف فى سيجارة..

مبهورًا بها ضحك من أعماقه، وبعينيه احتواها من قبل أن تصل إلى أحضانه..

ـ بشويش علىَّ.. أنت عمرك ماشفت بنت لذيذة..

ضحك وهو يقبلها قائلاً:

●● لأ.. أصلى خايف أغير رأيى...

ضربته بغيظ مفتعل بكلتا يديها فوق صدره..

- يا بايخ..

وقبل أن يرد عليها... ذابت بين أحضانه...

* * *

فى كل مرة يختلف معها تذهب ويظنها لن تعود، فيلوم نفسه لأنه أغضبها ويحرضها على الاعتذار لها، فإذا بها تجىء إليه وكأن شيئًا لم يحدث...

كأنها لم تتركه إلا لتعود إليه...

فى إحدى تلك المرات عادت إليه فاستقبلها بوجه متجهم وقلب سعيد، وتشاغل عنها بتشغيل جهاز التسجيل فجاء إليه صوتها:

- تعرف أنا جاية النهاردة ليه؟..

●● ليه؟!..

- ياساتر ومالك بترد علىَّ كده ليه؟..

●● اللهم ماطولك ياروح.. أنتى عايزه أيه بالضبط؟

فى تردد مثير قالت وهى تهرب من عينيه:

ـ عايزاك تتجوزنى...

مفزوعًا أجاب بلا وعى:

●● نعم ياختى؟!..

كقطة أمسكوا بذيلها تحفزت قائلة:

ـ ومالك اتخضيت كده ليه زى ما يكون جوازك منى مصيبة؟..

حاول أن يتماسك قائلاً:

●● أظن أنتى عارفة إنى مش بتاع جواز...

فى دلع همست وكأنها لم تسمعه:

ـ طيب بوسنى...

نظر إليها كأنه لا يصدق قدرتها على تغيير الموضوع بهذه البساطة وأشاح عنها بوجهه...

ـ ياسم على دمك.. طيب أنا ماشية ومش حاتشوف وشى تانى..

قال وهو يبتسم وكأنه قد قرر أن يتمادى فى إغاظتها حتى النهاية:

●● قديمة..

ركلت الأرض بقدميها فى غيظ وهى توشك على البكاء:

ـ لأ.. المرة دى أنا باتكلم بجد.. ورحمة ماما...

وبسرعة اتجهت إلى باب الشقة وفتحته وقبل أن تخرج همس مناديًا:

●● سوسن..

وبنفس السرعة استدارت لتقفز إلى أحضانه وتغمره بقبلاتها..

ـ أنا كنت عارفة إنك ما تقدرش تستغنى عنى.. مش كده؟!..

تجاهل الرد عليها وهو يحاول ضمها إلى صدره فتقلصت قائلة:

ـ بذمتك.. أنت مش بتموت فىَّ...

بصعوبة تمالك ضحكته وهمس قائلاً وهو يبحث عن شفتيها:

●● أيوه..

نظرت إلى عينيه كطفلة شقية وقالت:

- طيب ما تتجوزنى بقى...

تركها وانفجرت ضحكاته رغمًا عنه.. أما هى فقد نظرت إليه لبرهة فى دهشة... ثم انفجرت مثله ضاحكة!!..

* * *

الطاووس والقضية

تراجع (مصطفى بيه هاشم) بكرسيه مرتكزًا على الحائط الصلب خلفه وابتسم وهو يرى صورته المنعكسة على زجاج النافذة المجاورة له، أنيقًا فى بدلته السوداء المنشاه بعناية مبالغ فيها، وسيمًا بذقنه الحليقة وشاربه (الدوجلاس) وشعره اللامع، تزين كتفه نجمة متألقة.. نجمة أرهقت أنفاسه أربع سنوات ليحصل عليها.. أربع سنوات قضاها فى دراسة القوانين وركوب الخيل والرماية وتمارين اللياقة والتدريبات الصيفية والحياة العسكرية الجافة.. وأخيرًا نالها.. صغيرة تبدو فوق الكتَّافة، لكنها البداية، إذ سرعان ما تصبح نجمتين، فثلاثة.. ياه.. متى تصبح يادرش مأمورًا يأمر فيُطاع، ويصرخ فترتعد مفاصل الجميع من حوله؟.. إن غدًا لناظره قريب...

وتنفس نفسًا عميقًا وكأنه يحاول أن يجذب ذلك الحلم البعيد بأنفاسه ليصبح واقعًا ملموسًا، وتنبه إلى نفسه فعاد بكرسيه إلى الأمام وهو يرمق رئيسه بالغرفة المجاورة من خلال ذلك الحائط الزجاجى الشفاف... حامد بيه متولى.. رئيس وحدة التحقيقات... وتلاقت أعينهما فى نظرة خاطفة.. نظرة

جعلت مفاصله تضطرب.. إنه يرقبه بنظرة صقر وفضول عجيب، وحاول أن يتشاغل عنه بأن نادى على (البلوكامين النوبتجى) طالبًا منه دفتر أحوال النوبة لمراجعته... إنها النوبتجية الأولى له ولا بد أن يثبت للجميع أنه لا يقل كفاءة عن أى ضابط تحقيقات قديم، إنه يحفظ واجباته جيدًا.. لقد أعد نفسه لهذا اليوم من خلال فترة التدريبات بالأقسام أثناء فترة الدراسة بالكلية...

كان بينه وبين نفسه يحمد الله، فالجو رايق والأمن مستتب ولا مشاكل أو بلاغات ذات قيمة تُذكر حتى الآن، لقد مرت عدة ساعات قضاها فى تَسلُّم العهدة والأحراز وتوقيع دفتر التسلُّم والدور الداير والتأكد من تمامات المحابيس، ثم لم يجد ما يفعله سوى تصفُّح بعض المنشورات والتوقيع عليها بالمعلومية والاستسلام لشريط الذكريات.

و... فجأة.. سمع بعض الأصوات تقترب تدريجيًا من مكتبه، واعتدل فى جلسته بمجرد أن دخل عليه اثنان من الأمناء ومعهما امرأة فى الثلاثين من عمرها ورجل تجاوز الخمسين بعدة سنوات..

- تمام يا فندم.. نفذنا أمر التفتيش ولقينا الحاجات دى وسط بوقجة هدوم المتهمة..

تناول بضع أوراق من يد أحد الأمينين، وبثقة تصفح بعينيه أمر النيابة بالضبط والإحضار ومحضرًا يتهم فيه ذلك الرجل الماثل أمامه تلك المرأة ـ على ما يبدو له ـ بالسرقة، وتعمد أن يطيل النظر فى الأوراق ليبدو دقيقًا، متمكنًا، ثم رفع عينيه ناظرًا إلى الرجل العجوز المتصابى الذى يصبغ شعره بصبغة رديئة، تأمله بعمق دون أن ينطق.. وجهه مربع، ممتلئ بالصحة رغم كثرة التجاعيد فى وجهه، له شارب صغير كشارب شارلى شابلن، يرتدى بدلة بنية لا تتناسب مع وقار السن وضخامة الجسد المتكور، ثم نقل بصره إلى الأمين المرافق له بنظرة يعرف معناها جيدًا، خصوصًا من الضباط المستجدين الذين يتوافدون عليه منذ بداية خدمته وعلى أثرها انبرى بعرض الموضوع قائلاً:

ـ سعادة البيه عمل محضر الصبح بسرقة ساعة يده الذهبية وولاعته، واتهم فيه الوليَّه دى بسرقتها، والنيابة أمرت بتفتيش منزلها فوجدنا الحاجات دى وسط هدومها..

تتحنح الضابط وأخذ يستعرض المرأة التى أمامه.. فى الثلاثين من عمرها، لها وجه فلاحة مصرية، جميلة، جمالها

من النـوع الفطرى البـدائى، جـمـال لـم تـخـدشـه المسـاحـيق ولم تلوثه التقاليع، خصبة وطازجة كوردة برية، ملفوفة داخل ثوب متـواضع، يلف منـتصف شـعـرها الطويل منديل صـغـيـر، وتنبـه (مصطفى بيه) إلى استرساله فى فحصها فتتحنح مرة ثانية ثم أمسك بورقة وقلم وأخذ يكتب ديباجة محفوظة، ثم قال موجهًا كلامه للمرأة دون أن ينظر إليها:

- اسمك أيه ياوليه؟..

وتعـمـد لفظ (وليـه) ليُشـعـر السـامـعين بـأنه مـدرب على معاملة المجرمين والسوابق...

●● عزيزة يابيه..

وصرخ فيها وهو يرفع عينيه عن الأوراق:

- اسمك بالكامل ياوليه وبطلى حركات أُمّال...

وفـزعـت المرأة من صـرخـتـه المدوية فطـفـرت الدمـوع من عينيها وولولت قائلة:

●● مظلومة يابيه.. والله العظيم مظلومة...

وخفض الضـابط من طبقات صوته قـائلاً وهو يضغط على الحروف لتخرج من شفتيه كلمة.. كلمة...

ـ باقولك اسمك ايه بالكامل وبعدين حانشوف إذا كنتى مظلومة ولا لأ .. مفهوم؟...

فى استسلام ذليل قالت من بين دموعها :

●● مفهوم يابيه... مفهوم...

ـ اسمك؟!...

●● عزيزة طه محمد..

ـ سنك؟..

●● اتنين وتلاتين سنه يابيه..

ـ عنوانك؟..

تدخل الرجل المتصابى قائلاً:

ـ ساكنه فوق سطوح البيت اللى أنا ساكن فيه، صاحب البيت مأجر لها الأوضة اللى على السطوح علشان تربى فيها ابنها وأهى بتقضى طلبات السكان من مشتروات وخلافه...

ونظر إليه الضابط فى عمق ثم قال:

ـ قصدك أيه بخلافه؟..

فابتسم له الرجل ابتسامة لزجة وغمز له بعينه اليمنى ليوحى له بشىء ما :

●● يعنى تنضيف شقق السكان.. غسيل ومكوى يعنى.

ولم يفهم الضابط ما يعنيه المتصابى بغمزته، لكنه تراجع بكرسيه وهز رأسه قائلاً:

- آه مفهوم.. مفهوم..

ثم كأنه تنبه إلى أن الرجل بغمزته قد تناسى أنه أمام ممثل لقانون الدولة:

- لو سمحت ما تتكلمش إلا لما أوجه لك سؤال.. مفهوم؟

وزادت ابتسامة الرجل ثم قال وكأنه يساعده على تقمص الدور الجاد:

●● حاضر يا سعادة الباشا...

وعاد الضابط بنظره إلى عزيزة متجاهلاً ابتسامة الرجل اللزجة:

- أنتى ساكنة فوق السطوح يا عزيزة؟..

●● أيوه يابيه..

- وبتشتغلى أيه؟..

●● غسالة يابيه.. باشتغل غسالة علشان أربى ابنى.

ـ وأيه علاقتك بالأستاذ؟..

ارتفع نشيج المرأة وهى تقول:

●● مفيش يابيه.. أنا كنت بانضف له شقته زى كل سكان العمارة اللى بيقصدونى، وبعدين بطلت أخش شقته من يوم.. من يوم ما..

وقاطعها الضابط وقد شعر أنه على وشك الإمساك بخيط ما:

ـ من يوم أيه يا عزيزة... قولى ما تخافيش..

ونظرت المرأة إلى الرجل المتصابى فى ذل، ثم خفضت بصرها إلى الأرض قائلة فى انكسار:

●● من يوم ما حاول... إنه.. إنه.. يابيه أنا ولية غلبانة وعايزة اعيش بشرفى واربى ابنى..

نظر الضابط إلى الرجل ثم إلى المرأة الباكية، ثم تمتم فى هدوء:

ـ من يوم ماحاول يعمل أيه ياعزيزة.. قولى.. كملى..

بنظرة ضعيفة صادقة استحلفته أن يعفيها من الإجابة، وبنظرة ملحة فضولية طالبها أن تجيب.. ثم كأنها ضاقت بما هى فيه صرخت:

●● من يوم ما حاول يعتدى علىَّ...

وصرخ الرجل المتصابى فى انفعال:

ـ كدابة يابيه.. دى بتتبلى علىَّ.. أنا راجل محترم...

وبهدوء نظر الضابط إليه، كأنه يصدق ما تقوله المرأة، فهرب الرجل بعينيه إلى الأرض، وأكمل الضابط حديثه مع عزيزة..

●● الأوضة بتاعتك ليها مفتاح يا عزيزة..

صاحت المرأة:

ـ لا يابيه.. هىَّ الأوضة فيها أيه اخاف عليه.. يابيه أنا وليّة غلبانة وماعنديش حاجة اخاف عليها إلا شرفى.

وفجأة رن جرس التليفون بجوار الضابط، ورفع السماعة..

●● آلو.. أيوه يافندم.. أيوه.. هوَّ موجود قدامى دلوقت.. حاضر يافندم.. اطمئن...

ووضع سماعة التليفون ثم نظر إلى الرجل الماثل أمامه ولمح فوق شفتيه تلك الابتسامة اللزجة مرة أخرى.. وبهدوء دبلوماسى أشار الضابط إلى المقعد الذى أمامه قائلاً:

●● اتفضل.. اتفضل استريح..

ونظر الرجل إلى (عزيزة) وكأنه يُشّهدها على سطوته، وحدقت عزيزة فى وجه الضابط وكأنها لا تصدق ذلك التغيير المفاجئ، وأفاقت على كلماته لها:

●● شوفى ياولية أنتى.. نصيحة منى تعترفى أحسن لك، وبلاش الكلام الفاضى اللى بتقوليه ده.. الكلام ده مش حايفيدك بحاجة.. فاهمة..

وفى استسلام ذليل أجابت:

- فاهمة يابيه.. حسبى الله ونعم الوكيل...

وفجأة دخل أحد الأمناء ممسكًا بتلابيب أحد الباعة وبرفقته شاب أنيق، وقطع الضابط التحقيق ليستطلع الموضوع الذى يبدو أنه مشاجرة فى الطريق العام بين هذا البائع وذلك الشاب، وفى أثناء تلك الجلبة لمح الضابط ذلك المتصابى وهو ينهض من كرسيه مقتربًا من عزيزة وسمعه وهو يهمس إليها:

●● مش قلت لك حاتندمى يا عزيزة...

وسمعها تقول فى انكسار والدموع تنساب من عينيها:

- معلهش يابيه.. خلاص.. أنا فى عرضك...

●● يعنى مش حاتركبى دماغك الناشفة دى تانى...

وهمست فى ضعف:

- خلاص يابيه.. حرَّمت. أبوس إيدك..

وازدادت ابتسامة العجوز لزوجة وهو يفحُّ كثعبان فقد أسنانه:

●● كده.. طيب خلاص.. خلاص يا عزيزة..

قالها وعاد إلى مقعده فى هدوء، بينما أنهى الضابط موضوع المشاجرة بإحالتها إلى أحد الأمناء لعمل محضر بالواقعة والتفت إلى المتصابى قائلاً:

- الحاجات دى بتاعة حضرتك؟..

وردد الرجل فى ثقة دون أن ينظر إلى ما يشير إليه الضابط من أشياء:

●● لا يافندم..

واغتاظ الضابط قائلاً:

ـ لأ.. لأ إزاى؟..

وأعاد الرجل إجابته فى برود:

●● الحاجات دى مش بتاعتى...

ونظر الضابط إلى عزيزة قائلاً فى غيظ مكتوم:

ـ أُمَّال الحاجات دى بتاعة مين يا عزيزة؟!..

وقاطعه الرجل قائلاً:

●● بتاعة المرحوم جوزها يابيه.. مش كده ياعزيزة؟..

وردت المرأة كالمنَّومة مغناطيسيًا:

ـ أيوه يابيه.. بتاعة المرحوم جوزى..

وفهم الضابط ما يدور من حوله، فوجه حديثه إلى المتصابى قائلاً:

●● يعنى حضرتك مستعد تتنازل عن اتهامك...

وبسرعة أجابه العجوز وكأنه يريد أن يتفرغ لما هو أهم من هذا الموضوع:

- أيوه مستعد..

وفى دقـــائق تم التنـازل، وخـــرجت عـــزيزة من القـــسم وبجوارها الرجل العجوز وعلى شفتيه تلك الابتسامة اللزجة وكأنه قد نال كل ما أراد...

وأحس الضـابط أنه قد سـاق تلك المسكينة إلى طريق لم تكن تريده، وبأنها لن تصبح بعد هذا اليوم.. عزيزة!!..

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

شجرة اسمها عفاف

فى نهاية قريتنا الصغيرة، توجد شجرة يافعة مُورقة، شجرة يفرُّ إليها العشاق مع بداية الغروب، ويفرُّون منها فى نهايته، مذعورين، خائفين، وكل منهم يُقسم بأنه قد رأى تلك الشجرة وهى تتشكل بجذعها وفروعها وأوراقها فى صورة فتاة ...
فتاة صغيرة تصرخ وسط الظلام ...
مرددة أسماء قاتليها !!....

المؤلف



www.halapublishing.net
hala@halapublishing.net

